المعهد الملكي للدراسات الدينية

السريان

قديماً وحديثاً

سمير عبده







السريان

قديماً وحديثاً

■ سمير عبده (السريان قديماً وحديثا)

المعهد الملكي للدراسات الدينية

تأسس المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمان سنة ١٩٩٤، وهو يهدف إلى تعميق الفهم المتبادل بين الإسلام والمسيحية عن طريق الأبحاث والحوار العلمي.

العنوان: ص.ب. ٨٣٠٥٦٢ عمان ١١١٨٣ - فاكس ٦١٨٠٥٢ ٦ ٩٦٢ الأردن

■ الطبعة العربية الأولى :

الاصدار الأول ١٩٩٧

■ الناشر:



دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف : ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس : ٦١٠٠٦٥

ص.ب : ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠ عمان - الاردن

■ التوزيع في فلسطين :

دار الشروق للنشر والتوزيع

رام الله - المنارة - الشارع الرئيسي هاتف : ٩٩٨٥٩٧٨

■ التنضيد والإخراج الداخلي وتصميم الغلاف وفرز الألوان و الأفلام:

الشروق للدعاية والإعلان والتسويق/ قسم الخدمات المطبعية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات: ٦٨٧ / ٦ / ١٩٩٧

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٨٢١ / ٧ / ١٩٩٧)

رقم التصنيف: ٣٠٥,٦٩٨

المؤلف ومن هو في حكمه: سمير عبده

عنوان الكتاب: اسريان قديما حديثاً

الموضوع الرئيسي: ١- العلوم الاجتماعية.

٢- الجماعات الدينية - السريان،

رقم الايداع: (٨٢١ / ٧ / ١٩٩٧)

بيانات النشر: عمان : دار الشروق

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

طبع في شركة مطابع الأرز هاتف ٨٧٢٠١١ تلفاكس ٦١٢١٩٠

السريان

قديماً وحديثاً

تأليف

سمير عبده

مراجعة

عواد علي



1997

الفهرس

توطئة

لهذه التوطئة هدف أرى أن أعرضه على القارئ قبل أن يبدأ بقراءة الكتاب، فأنا أحاول أن أقدم هنا بحثا تاريخيا موثقا، لا يخلو من انطباعات ونظرات وتحليلات شخصية، غايتها استثارة الاهتمام واعطاء المعلومات. إنها سرد لحقائق من الماضي يرافقها ربط بالحاضر، وتطلع الى المستقبل، وعرضها على صفحات هذا الكتاب هو عرض لحياة السريان الذين هم الآراميون بذاتهم، وتأثرهم بما قبلهم، وتأثيرهم فيما بعدهم.

وإذا كان لكل كتاب قصة، فلقصة هذا الكتاب جانبان: جانب شخصي وآخر دراسي، أما عن الجانب الأول فهو يتعلق بقربي ومعايشتي لهؤلاء الناس، والجانب الآخر يتصل بمنطلق فكري يسعى إلى دراسة واقعية للسريان، سواء لتاريخهم القديم أو الحديث الذي يمكن أن يشكل مجالا دراسيا محدداً، وداعيا لمنطلقات فكرية مختلفة، وأطر منهجية متطورة، وبذلك يتم التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

قبل عام لم يكن ليخطر ببالي أن اكتب كتابا بهذا العنوان، فعناوين كتبي تختلف عن الموضوع الذي أطرقه، ولكن ما ساقني الى ذلك هو أنني، منذ ٣٥ سنة، حين اقرأ كتابا أو بحثاً ألخصه، أو أقتبس بعض الاسطر منه للاستشهاد في موضوع ما قد اطرقه لاحقاً. وهكذا على مدى هذه السنوات تراكم لدي كم هائل فيما يخص تاريخ السريان، فحين جمعت هذه المراجع رأيتها تعدت تخميناتي بكثير في توثيق كتاب يتناول موضوعا كهذا، وهكذا بدأت رحلة ثانية في مجال توثيق الحاضر بالماضي، فكان هذا الكتاب، والوصول الى تحليلات واستنتاجات تفيد البحث. وعذري فيما يخص نواقص المراجع أن أغلبها من القديم الذي لم يكن يذكر اسم دار النشر، أو

المدينة التي صدر عنها، وتاريخ النشر. والى الستينات من هذا القرن كنا نرى ذلك. كما أنه لا يمكن أن أسامح نفسي حين اذكر المرجع دون وضع رقم الصفحة، وهذا الخطأ كذلك كان معمولا به في القديم، فيقال: قال ابن سينا في كتابه كذا القول الفلاني، دون ذكر رقم الصفحة، وهذا النقص ربما وجده القارئ في بعض المراجع، لاستحالة وصولي اليها في الوقت الراهن، فالكثير منها جرى أخذه من خلال مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت خلال أعوام ١٩٦٣-١٩٨٣.

إنني أود أن أقول للقارئ جادا: لقد سعيت الى أن أكون منصفا وموضوعيا، رغم إنني لم أفلح في ذلك دائماً، وأردت أن أفسر وأكشف ماضي هؤلاء السريان، وإلى أين وصلوا في تطورهم، وسأكون مسرورا اذا قبلوا هذا العمل هبة مني لأناس تشدني إليهم أقوى الروابط.

إن الكتب السابقة التي تناولت السريان كانت، في الأغلب، كتبا تناولت الجانب الايماني والديني من حياتهم، أو كتبا (وهي قليلة) تناولت دورهم في الحضارة العربية الاسلامية، في حين تناول هذا الكتاب معظم وقائع الماضي مع ربطها بالحاضر معطيا ارقاما واستدلالات لم توجد قبل ذلك في أي بحث تناول السريان بالشكل المعروض هنا.

وحرصي على أن أصل الى الحقيقة، وأوصلها الى القارئ جعلني أطلع أوراقي هذه على أصدقاء كرام عرفت فيهم سداد الرأي والجرأة في الحق، فتفضلوا بتصويبات وملاحظات وتعليقات استرشدت بها، وأجريت ما أجريت من تعديل في عباراتي، وهي في معظمها تقف على عتبة السريان المعاصرين، اخص بالذكر هنا الدكتورة ماجدة خوري، التي رغم تخصصها الطبي العالمي فقد اعطتني من وقتها الثمين ما جعلها تراجع النص، كما كان الأمر مع الأستاذ المحامي مروان يوسف صباغ، فافدت من تصويباتهما، ومع ذلك فان الارقام التي أوردتها عن عدد السريان

لا يمكن أن تمثل الواقع تماما، فهي تخمينات تستند الى الواقع من أرقام وردت في مراجع أخرى فيما يخص السريان قديما وحديثا. وتبقى مسؤولية ما أردته واستنتجته بالكامل على عاتقي وحدي.

وسرني جدا أن تبنى كتابي هذا المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمان، كما أفدت جدا من مراجعة الباحث عواد علي، للكتاب، المشرف على الأبحاث العربية في المعهد، وللسيد بكر الحياري وحسن البطوش من أسرة المعهد شكري وامتناني على متابعتهما في اصدار هذا الكتاب.

سمير عبده

دمشق


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المقدمة

مهما كتب في التاريخ، فإن كل كتابة جديدة تضفي معلومة اضافية، والشيء الذي نراه أمامنا، إن كان بيتاً، نراه بألف رؤية ، من خلال بعدنا وقربنا منه، ومن نظرتنا اليه من زوايا وارتفاعات مختلفة، ومن مشاهدتنا له خلال تحوّل النهار والليل وانفراجات الضوء وخفوته. أما في داخله فإن نفس الاوصاف التي رأينا البيت فيها من الخارج يمكن تطبيقها على الداخل. هذا هو الانطباع عما نراه في البيت، ثم يأتي بعدئذ شكله وطرازه وارتفاعه ولونه .. الخ. ففي حين نراه نحن حديث الطراز، يراه غيرنا يساير مقتضيات العصر، وقد يعود اليه آخرون بعد مئة سنة فيرون أن هذا الطراز كان سيئا، أو ممتازاً الى غير ذلك.

ربما كان هذا المثل هو ما يعنينا من التاريخ، فكل جيل يعود ويكتب التاريخ من جديد .. لا لأنه اطلع عل حقائق جديدة فحسب بل لأن المرحلة التي بلغها في التطور تجعله يرى الحقائق القديمة على غير ما كانت تراها الاجيال السابقة كما يقول قسطنطين زريق.[1]. ولهذا، أيضاً، كان للتاريخ ذاته تاريخ، وما تاريخ التاريخ سوى متابعة هذه النظرات المتعاقبة التي كونتها الأجيال المتتابعة، وتفهم أثر هذه النظرات في التأليف التاريخي، خاصة في الفكر والحياة بوجه عام.

دعونا ننظر الى فرقة موسيقية حيث نرى كل واحد يعزف على آلة مختلفة، ولكنهم يعزفون لحنا واحداً، فلهم ملحن واحد، ولهم قائد أوركسترا واحد. ولو ظهر في الدنيا الف أوركسترا، أي مئات الألوف من العازفين للحن الواحد لرأيت صورة واضحة للتاريخ نفسه، فالتاريخ يشمل ملايين الناس ولهم وجهة واحدة يحركهم بعض الملحنين والعازفين .. التاريخ حضارات تحركها وتدفعها وتوجهها أقليات مبدعة.

١- قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، دار العلم للملايين- بيروت ١٩٦٣، الطبعة الثانية، ص ١٦٠.

التاريخ عربة مشحونة بالناس نسجتها الاقلية المبدعة في كل العصور، وهذه هي فلسفة المؤرخ الكبير ارنولد توينبي.

قليلة هي الكتب التي تناولت تطور تاريخ السريان خارج الاطار الكنسي، وإذا كانت كذلك فقد تناولت أدبهم أو مقارنتهم مع حضارات أخرى. من هنا كان هذا الكتاب الذي جمع ما بين القديم والحديث، بين عصر ازدهار السريان وبين انتكاساتهم، بين الناس وكنيستهم، بين عشق السريان للعرب، ومحبة العرب والاسلام للسريان. والكتاب حافل بالكثير من الملاحظات الهامشية، وربما كان لاستخدام ذلك في الكتابة، أو عند عرض نص من النصوص هو الاشارة الى المصدر الذي أخذت منه تلك العبارة، فالملحوظة الهامشية هي بمثابة استدعاء الشاهد في المحكمة. ولعله من الأفضل، تبعاً لهذا أن تأتي هذه الملحوظة في غاية الايجاز، غير أنه، أحيانا، قد يصبح من اللازم استدعاء العديد من الشهود، اذا تضاربت أقوال بعضهم، لبيان اختلافهم، ولحسم مادة الخلاف في ملحوظة هامشية. وقد تطول الملحوظة الهامشية، غير أنه لا بد أن يبقى هدفها، حتى في هذه الحالة، التدليل، فتبين مصدر الشاهد الذي تستند اليه العبارة، أو العبارات التي نشير اليها.

وقد ضمّنت الملحوظات الهامشية، اقتباسات من المصادر نقلت بحرفيتها (بعد تصويب الاخطاء الاملائية من بعضها)، أو على صورة تقرب من ذلك لأن هذا الاجراء يحقق الفائدة المرجوة منه، فالقارئ أو المهتم بالموضوع يصبح بمقدوره أن يفحص العبارة التي دار حولها النقاش أو الكلمات المقتبسة، وكذلك يسهل حينئذ على الذين سيتناولون موضوعات متصلة بالموضوع نفسه أن يرجعوا الى المصادر الضرورية.

وجرى تقسيم هذا الكتاب بعد هذه المقدمة الى أربعة فصول تناولنا فيها الآ

الفصل الأول: تناولنا فيه الأصول التاريخية للسريان الذين بدأوا مع وجود الآراميين قبل ١٢٠٠ عام من يسوع المسيح، مقتفين اللغة الآرامية التي أصبحت اللغةالسريانية، مع انتشار المسيحية، ثم تناولنا تعريف كلمة السريان، وماذا يعني اسمهم ولمن يشير، خاصة لاسم سورية.

الفصل الثاني: عرفنا فيه الكنيسة السريانية التي هي الكنيسة الام للمسيحية في العالم، والتي تكلم بلغتها يسوع المسيح، حيث نزل جانب من الكتاب المقدس من الله على قلوب أوليائه باللغة السريانية،

مستعرضين كل المراحل التي مرت بها هذه الطائفة من محن وأهوال الى وقتنا الحاضر.

الفصل الثالث: تناولنا فيه المؤثرات السريانية في الحضارة العربية الاسلامية، فهذه المؤثرات لا يمكن المرور عليها دون تبيانها، ومعرفة مداها، فمن خلال هذه المؤثرات ارتفعت الحضارة العربية، وبلغت أوجها من خلال ما قام به العلماء السريان من جهد علمي، إن كان في بداية الاسلام، أو في العهدين الاموي والعباسي، مجملين كل ذلك في بناء الحضارة العربية، واللغة السريانية الحاضرة في العربية.

الفصل الرابع: تناولنا فيه وضع السريان في القرن العشرين ،حيث كانت محنة هذا الشعب كبيرة، فبعد أن كان عدده يشمل معظم سكان سورية قبل ١٨٠٠سنة غدا الآن لا يمثل سوى ١٪ من نسبة السكان، بعدما تعرض له من مجاعة واغراء على ترك سريانيته الى أن أخذ يستعيد عافيته ليفاجأ باغراءات الهجرة الى السويد وبلاد الاغتراب، فكان أن خسرت سورية الكثير من الناس المهرة، والفنيين الذين اغنوا هذا البلد على مدى العصور بروائع فكرهم وفنهم، كما تطرقنا الى وضعهم في الهند والعراق وبقية البلدان.

ولم نصادف، من خلال مراجعتنا لعشرات الكتب التي تناولت تاريخ السريان، من شكا منهم، بل كانوا دائما محل تبجيل من المؤرخين. ولا يمكن أن ننسى جهود الدكتور فيليب حتي رئيس قسم التاريخ في جامعة برنستون الامريكية، فهو في مؤلفاته التي تناول فيها تاريخ المنطقة أكد على اسم السريان في نسبة الشعب الذي خلف الآراميين، ومع غيره من أشهر المؤرخين والكتاب :. من ارنولد توينبي الى هـ.ج. ويلز رفع العلم السرياني فوق هامة سورية الطبيعية (وفي الاستثناءات التي ميزت علماء السريان في عصر الحضارة العربية اصر بعض المؤرخين ممن ينتسبون الى طوائف مسيحية أخرى [٢] على تحديد هوية بعض هؤلاء العلماء

٢- الارشمندريت يوس نصر الله: حركة النقل عند الملكيين في العصر العباسي الاول، مجلة المسرة- حويصا- لبنان. العدد٥١١ كانون الثاني ١٩٦٦ ، ص٥٥.

بالنساطرة) مثل آل بختيشوع، وحنين بن اسحق، وابنه اسحق وتلامذته، ولوقا بن سرابيون، ويحيى بن ماسويه، ومن الملكيين (الروم) قسطيا بن لوقا، ويحيى بن البطريق.

وأرجح أن اصرار علماء التاريخ على نسبة (السريانية) الى العلماء المسيحيين تعود بشكل طبيعي الى أولويتهم في المنطقة، وكانوا هم الذين حملوا شعلة العلم والثقافة، ومن ثم حين جاءت الانشقاقات المسيحية فإن ذلك لم يعطل منطق الاحداث الا وهو أنهم مسيحيون سريان في اساسهم، ويسوع المسيح كان يتكلم لغتهم، لهذا لم يدقق المؤرخون كثيرا في بعد التسمية عن أصلها، فكانت السريانية هي المرادفة لمسيحيي سورية بكل ما كانت تحمله من معنى كبير.

إن تأثير السريان في الحضارة العربية الاسلامية كبير، أتينا عليه من خلال فصول الكتاب، ويمكن أن نذكر هنا بعضه، فقد تقبلت العقلية العربية ما ادخله اليها السريان من ثقافات مختلفة، وكان لاحتكاك المسلمين بالسريان أن نقل اليهم الكثير من الافكار الفلسفية، وهو ما جعل الفرق الاسلامية تتأثر بالعوامل المسيحية.

ولولا السريان من خلال تقبل ودعم الخلفاء الامويين والعباسيين لهم، ونقلهم للفلسفة اليونانية الى العربية، ثم نقل الغرب لها في القرون الوسطى ووصوله الى ما وصل اليه من رقي وتقدم، أقول لولا ذلك لتأخرت أوروبا، ربما لمئة أو مئتي سنة أخرى لتنهض وتصل الى ما وصلت اليه.

ولعل أهم الفروق اطلاقا بين الانسان وغيره من المخلوقات هو أن الانسان يعتبر المخلوق الوحيد على ظهر الارض الذي يتذكر تاريخه، ويحفظ ما بقي منه من الضياع، في حين أن المخلوقات الاخرى لا تحفظ التاريخ ولا تتذكره.

وكلما إرتقت الشعوب في مضمار الحضارة والمدنية ازداد شغفها بتاريخها، وكلما تدنت حضارتها تدنى هذا الاهتمام، فاجلال التاريخ هو مظهر حضاري لاي شعب، وهدم التاريخ هو مظهر بربري...

من هنا كان هذا الاهتمام في موضوع كتابنا.

الفصل الأول

الأصول التاريخية للسريان

السريان هم حلقة الاتصال بين العالم الاغريقي والاسلام، لذلك ليس غريبا أن يكون لهم دور كبير في تغذية الحضارة الاسلامية، وأن يكونوا أكثر الطوائف المسيحية تفهما للاسلام، بكل ما كان من شأنه أن يكفل لهذه الحضارة النمو والازدهار. لهذا لم يوقف الاسلام سير الحياة العقلية في البلاد التي فتحها، ولقد تمثل ذلك بصورة متميزة في مجتمع النسطوريين واليعاقبة، فضاعف هؤلاء من نشاطهم في خدمة الثقافة والمعرفة مما ساعد على نقل العلوم اليونانية واتصالها بالفكر العربي.

وقد أطلق مصطلح الاقوام السامية على الأقوام التي تكلمت باحدى فروع عائلة اللغات السامية (كالأكادية والبابلية والأشورية في العراق والامورية والكنعانية والآرامية والعبرانية والعربية في ربوع الشام وجزيرة العرب). وقد طغت هذه الاقوام الساميةفي هجراتها على الشرق الادنى (والمجمع عليه تقريبا أن مهدهم كان الجزيرة العربية)، وأسست فيه دولاً وسلالات حاكمة شهيرة، فنذكر في العراق الفرع الشرقي من الساميين وهم الأكاديون والبابليون والأشوريون، واختصت بلاد الشام بهجرات سامية كثيرة نذكر اشهرها بالتسلسل التاريخي في هجرات الاموريين والكنعانيين والفنيقيين والآراميين والعبرانيين، والأقوام السامية المتأخرة في الشام والعراق (وأشهرها الغساسنة والمناذرة). وهاجرت جماعات من الساميين في عهد قديم (لعله قبل الألف الرابع ق.م) الى وادي النيل، وامتزجت بالسكان الاصليين هناك، فنتج عن هذا الامتزاج المصريون القدماء الذين نعرفهم في التاريخ [٣].

ويرجع التعقيد الذي يتصف به تاريخ المجتمع السرياني- أصل الحضارة الاسلامية كما يقول ارنولد توينبي، مطلقا هذه التسمية بشكل دائم رغم اختلاف الحضارات على هذه المنطقة- الى ما خالطه وشاع فيه من العناصر الاشورية والهلينية الدخيلة، فقد قطع ذلك الاختلاط مجراه (عبر الزمن)، وقل طمسه برواسب

٣- صموئيل كريمر: من الواح سومر، ترجمة طه باقر، ومراجعة أحمد فخري. مكتبة المثنى - بغداد ١٩٥٧، ص١٩.

من تربة غريبة، ولكن توينبي يحاول، رغم ذلك التعقيد، أن يعرّفه بقوله: عندما نُرد المجتمع السوري- الايراني SYRO_IRANIAN، أو السرياني SYRIC كما نفضل أن نسميه الى أصله، نجد أن سورية SYRIA هي موطنه الاصلي، وأن الفينيقيين والفلسطينيين والاسرائيليين والآراميين- والايرانيين الذين لم ينضموا اليه الا فيما بعد - هم شعوبه السورية. ولقد نشأ هذا المجتمع السرياني الذي صار فيما بعد المجتمع الاسلامي الحالي، في رقعة من الارض تمتد من الشط الآسيوي لبحر مرمرا الى دلتا (الكنج)؛ والناظر الى هذه المنطقة يراها قصيرة المدى، اذ أنها تتكون في معظمها من سلسلة مقاطعات كالاناضول، واذربيجان، وخراسان، وافغانستيان، وهندوستان (بمعناها الجغرافي الضيق الذي يشمل سهول الهند الشمالية من البنجاب الى البنغال باستثناء الدكن). غير أن تلك الرقعة من الارض تتسع في وسطها لتشمل حوض (جيحون وسيحون) على حدود الصحراء الاوراسية، أما المجتمع الاسلامي الذي نشأ في هذه الرقعة حوالي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، فقد برزت معالمه في البلدان التي قامت فيها معظم دول العالم الاسلامي الحالي- باستثناء المغرب.

ويعرض توينبي لبعض هذه البيئات الجغرافية من حيث صلاحيتها لعمليات النشوء الحضاري فيلاحظ أن تدمر والبتراء وفينيقيا كانت تشكل تحديات طبيعية (مناسبة)، وأن المجتمع السرياني الذي قام في هذه المواطن كلها استطاع بمجموعه أن يحقق ثلاثة منجزات حضارية عظيمة وهي:

أولا- اختراع الألفباء.

ثانيا- اكتشاف المحيط الاطلسي.

ثالثا- الوصول الى (مفهوم) معين (لله) مشترك بين الديانات الاربع: اليهودية والزرادشتية والمسيحية والاسلامية[٤].

٤- منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي. دار العلم للملايين- بيروت.

الآراميون والسريان

اذا عدنا بعض الشيء إلى تاريخ السريان فإننا نرى أنه حوالي سنة ٦١٢ ق.م. استولى الكلدان على سورية- وهم من الآراميين [٥]- وتغلغلوا الى وادي الفرات الاسفل، وعرفوا باسم كلدو منذ حوالي القرن الرابع عشر ق.م. ولقد تحقق لهم أعظم انتصاراتهم في عهد نبوخذ نصر (٦٠٤ ق.م)، اذ فتح أورشليم[٦] عام ٥٨٦ ق.م، وأخذ خير ما فيها ونقله الى بابل. ولقد كان الكلدانيون بحكم الظروف ورثة لتقاليد أشور، ومعارفها مما دفع الحياة العلمية الى الازدهار في عهدهم، فقد مهروا[٧] في العلوم الرياضية والالهية، كما كانت لهم عناية برصد الكواكب ومعرفة بطبائع النجوم.

وحيث أن السريان ينسبون الى الآراميين، فإن هؤلاء كانوا شعبا ساميا خرج من شبه جزيرة العرب «في فترات من القحط بالغة الخطورة؛ ثم اندفع نحو الشمال وحل في سورية وفلسطين، واستقر فيها نحو سنة ١٥٠٠ ق.م غير أنهم «لم يكتسبوا اسمهم (الآراميين) حتى أيام تجلات بيلاصر الاول نحو ١١٠٠ ق.م، حين أقاموا في منطقة الفرات الاوسط حتى في الغرب»[٨].

وقد كانت الهجرة الآرامية من أقدم الهجرات السامية من جزيرة العرب، وهي التي تمثلت في جماعات متعددة لا تعرف بهذا الاسم، فقد أقام الاخلامو، وكانوا «مقترنين بالآراميين بصورة وثيقة في شمالي بلاد الرافدين»، كذلك يرجح أن الكلدانيين أو البابليين الحديثين كان لهم بعض العلاقة بالآراميين [٩].

٥- فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج١ ترجمة د. جورج حداد ود. عبدالكريم رافق. دار الثقافة - بيروت ١٩٥٨، ص١٧٥.

٦- أدى شير: تاريخ كلدو وآثور طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩١٢- الجزء الثاني ١٩١٣. والنص من الجزء الثاني ص١٤٢.

٧- صاعد بن أحمد الأندلسي: طبقات الامم طبع محمد يسلر (سورية).

٨- د. نجيب ميخائيل : مصر والشرق الإدنى القديم ج٣ ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩ ص٢٣٢،

٩- فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج٢، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة-بيروت، ١٩٥٨.

ولعل هذا الأمر هو الذي دفع الى التوسع في مدلول لفظ الآراميين، اذ يطلقها بعضهم على الشعوب السامية التي تناثرت وتتابعت في منطقة الهلال الخصيب، ويعلل ذلك «بان بلاد الآراميين يقال لها عند اليهود آرام لأن آرام بن سام هو الذي عمرها بنسله، وكذا ورد اسمها في العهد القديم المكتوب في العبرانية (١٠).

فيما يشير أدي شير في مقدمته لكتابه (تاريخ كلدو وآثور) الى أن سكان الجزيرة والعراق على اختلاف مذاهبهم هم كلدان آثوريون جنسا ووطنا، ويقول «لقد دعوتهم كلدانا آثوريين لان هذين الشعبين هما في الأصل شعب واحد نظراً الى الديانة والعادات والشرائح والآداب والصنائع، فضلا عن أن اسم الكلدان والآثوريين أطلق دون تمييز على شعب واحد في التواريخ القديمة، اذ كانت الدولتان متضامنتين غالبا فاصبحتا دولة واحدة، ولا عبرة للحروب المتصلة بينهما»(١١).

وفي ضوء الاكتشافات الاثرية الحديثة أمكن القول أن كلمة (سامية) هنا تعني (عربية) مما يدل على أن العنصر الغالب بين الأقوام التي استخدمت هذه اللغات قديما كان العنصر الذي ينتمي سلاليا الى الجزيرة العربية.

اللغة الآرامية

سادت الكتابة الأكادية المسمارية بين ممالك المنطقة العربية خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقد كانت أول محاولة لاختراع حروف أبجدية للغات السامية في شبه جزيرة سيناء، وبعد محاولات عدة لتطوير أبجدية سيناء- في فلسطين وسورية- ظهرت الابجدية الفينيقية في القرن العاشر قبل الميلاد في بيبلوس، التي أصبحت أساس الكتابة في بلاد اليونان والعالم الغربي بعد ذلك، إلا أن اللغة الفينيقية لم تنتشر كثيرا في منطقة الهلال الخصيب، وإنما كانت السيادة بعد ذلك للغة أخرى هي اللغة الآرامية السورية التي طغت على الابجدية الفينيقية.

١٠- المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية: طبع في دير الآباء الدومنيكيين - الموصل ١٨٩٨، ص ١٧٥.

١١- ادي شير: مقدمة ج٢. المرجع السابق نفسه.

إن الآرامية هي فرع من فروع اللغات السامية الشمالية الغربية، سميت كذلك نسبة الى الأقوام الآرامية التي سكنت اعالي أرض مابين النهرين. وكان الآراميون يمثلون جماعات من أقوام سامية جاءت من مطنقة الخليج، وانتشرت شمالا في منطقة الهلال الخصيب تدريجياً منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد جماعات بدوية، انتشرت في المنطقة الصحراوية الواقعة بين نهر الفرات شرقا، وجبال لبنان ونهر الاردن غربا، وعندما انهارت دولة (ميتاني) التي كانت تعرف في المصادر المصرية والأكادية باسم (نهرينا) و (نهريم) بأعالي الفرات، وانهارت دولة الحيثيين بالاناضول أمام أقوام البحر، وتمكن الاموريون من الاستيلاء على هذه الارض، وتكوين ممالك عدة هناك، خلال القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، وظهرت ممالك المدن الآرامية الصغيرة في بلاد الرافدين وفي سورية- منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد- مثل (آرام زوبة)، و (آرام رحوب) و(جشور)، و(حلب)، و(حمص)، و (بيت عديني Adini)، ثم امتد وجودهم جنوبا الى تدمر ودمشق.

ويرى بعضهم أن انتشار لغة الأقوام الآرامية بدأ مع التجار الذين تجولوا في منطقة الهلال الخصيب، اذ كان الآراميون متخصصين في أعمال التجارة، وأصبحت لغتهم الآرامية هي لغة المعاملات التجارية في المنطقة، قبل أن تصبح لغة المعاملات الديبلوماسية كذلك. وبينما كانت الأكادية تستخدم الكتابة المسمارية ذات الأصل السومري فان الآرامية استخدمت الأبجدية الفينيقية لكتابة لغتها بالحبر والقلم اتباعاً للطريقة المصرية. وبحسب قول الباحث الامريكي وليم اولبرايت، فإن الآرامية بدأت عند بداية الألف الأول قبل الميلاد[١٢].

وتتكون الابجدية الآرامية من ٢٢ حرفاً ساكناً تتفق مع الحروف الفينيقية، وتختلف اداة التعريف في الآرامية عنها في العربية، فبدلا من (ال) التي تسبق الكلمة في العربية، فإن الألف الممدوة تأتي في نهاية الكلمة الآرامية المفردة، فتصبح (ملك) عند تعريفها (ملكا). ومثل باقي العائلة السامية، تعتمد الآرامية في كلماتها على المصدر ،الذي غالبا ما يتكون من ثلاثة أحرف، كما يتم تغيير المعنى عن طريق تغيير الحركات. ومع نهاية القرن السابع قبل الميلاد كانت الآرامية قد حلت محل الاكادية

١٢- أحمد عثمان: الانباط العرب يستخدمون الآرامية لكتابة لغتهم. صحيفة الحياة- لندن، ١٩٩٥/٦/٣٠.

في المعاملات الرسمية في كل منطقة الهلال الخصيب، فأصبحت هي لغة التكاتب بين شعوب المنطقة.

وعندما كوّن الفرس امبراطوريتهم، بعد ذلك بقرنين، أصبحت الآرامية هي اللغة الرسمية للامبراطورية الفارسية، وعمل هذا على توحيد الكتابات الآرامية، إلا أنه بعد سقوط الامبراطورية الفارسية أمام الإغريق، بدأت الكتابات الآرامية تتخذ اشكالا محلية في البلدان التي استعملتها؛ فظهرت فروع عدة عن الآرامية، منذ بداية القرن الأول قبل الميلاد، وتفرعت عنها كتابات، مثل العبرية– التي هي لغة الكلام الكنعانية مكتوبة بحروف آرامية– والنبطية والتدمرية (لغة تدمر في صحراء سورية).

ومن نماذج الكتابة الآرامية نص ورد في سفر (دانيال) من العهد القديم يقول «دانينل بارك لألا شميا»، ويعني (دانيال بارك اله السماء)، و (ملة ملكا) بمعنى (كلمة الملك).

كان من آثار النفوذ الذي إكتسبته اللغة الآرامية أن «عرب الشمال أخذوا أبجديتهم التي كُتب بها القرآن الكريم من الآرامية التي إستعملها الانباط، كذلك حصل الارمن والفرس والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية»[١٣].

ففي أوائل القرن الرابع قبل الميلاد قامت دولة الانباط العربية، وامتدت من خليج العقبة الى دمشق، وشملت معظم شمال جزيرة العرب، وكانت عاصمتها سلع أو البتراء، حيث كان العرب في البتراء يستعملون الآرامية في الكتابة مع أنهم كانوا يتكلمون العربية، وكانت الكتابات المختلفة التي نقشت على قبور سلع تدل على أن الانباط قد أخذوا في هذه النقوش اللغة الآرامية التي كانت لغتهم الرسمية حتى في ظل الأخمينيين، وذلك أن الاحرف الهجائية لم تكن قد استنبطت بعد عند العرب، فلما ظهرت الحاجة الى الكتابة عند عرب الشمال كان من الطبيعي أن يأخذوا «ابجديتهم التي كُتب بها القرآن من الآرامية التي استعملها الانباط»[١٤].

ويلاحظ أن فعالية السريان لم تنحصر في الحضارة النبطية والتدمرية، وإنما

١٣– فيليب حتي: المرجع السابق. ج١. ص١٨٣.
١٤– نفسه، ص٤٢٧.

برزت آثارهم بشكل ملموس في حضارة الغساسنة والمناذرة، وقد خرج هؤلاء العرب من اليمن، وشاءت لهم الظروف أن يستقروا حيث أقاموا، ويكاد المؤرخون يتفقون على أن الغسانيين ينسبون الى ماء غسان، ولكنهم يختلفون في تحديد مكانه، فيرى بعضهم أنه باليمن «بينما يرى الآخرون أنه بالشام»[١٥].

أما دولة الغساسنة فقد دامت لمدة اربعمائة سنة تقريباً، منذ القرن الثالث الميلادي حتى ظهور الإسلام، وكانت عاصمتها (بصرى)، واتيح للغساسنة بحكم موقع امارتهم أن يكونوا للحضارات التي شهدتها منطقة الشام، كما قدر لهم أن ينقلوا تأثير السريان عن قريب، اذ نقل اليهم اليعاقبة الثقافة اليونانية ونشروها بينهم. كما بنى ملكهم جفنة بن عمرو بالشام عدة مصانع، وبنى ابنه عمرو بن جفنة عدة أديرة، منها دير حالي، ودير أيوب، كذلك شيدوا القصور والقلاع[١٦].

وفيما يخص امارة الحيرة فقد اقامها الفرس ليكفوا بها من عليها من بوادي العرب[١٧]، وليستعينوا بابنائها على حراسة قوافلهم التجارية التي كانت تتغلغل في الجزيرة العربية[١٨].

ويرى بعضهم أن المسيحية «قد عزلت الكتابات الآرامية عن العالم، وحالت بينها وبين الخروج من معقلها لأنها لم تكن تساير العقيدة المسيحية، وبقيت كذلك في عزلتها حتى العصور الاسلامية المتأخرة حين قضى المغول عليها نهائياً سنة ١٢٣١ ميلادية، وبذلك حرم العالم من ثمار حضارة هؤلاء الأقوام»[١٩].

لهذا فان عدم وجود آثار آرامية يرجع تاريخها الى ما بعد الفتح المقدوني لا يعني أن هذه اللغة قد انقرضت بعد فتح الاسكندر لتخلي مكانها للغة اليونانية، إذ أن الواقع يثبت أنها ظلت مسيطرة، وبالرغم من ذيوع اللغة ليونانية فإنها ظلت لغة

١٥– د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج١. ط٣، مطبعة مصر، ١٩٥٣، ص٤١.
١٦– نفسه، ص٤٢.
١٧– أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: التنبيه والاشراف. طبع الصاوي– القاهرة ١٩٣٨، ص١٥٨.
١٨– د. حسن ابراهيم حسن: المرجع نفسه، ص٣٤.
١٩– د. مراد كامل: تاريخ الادب السرياني، مطبعة المقتطف – القاهرة، ٥٩.

الغرباء[٢٠]، وأما أهل البلد الأصائل فقد ظلوا على لغتهم، فكانت الآرامية هي لغة الشعب، وكانت لسان العامة، وأداة التفاهم في الأمور الحياتية، وقد استمرت لقرون عدة بعد ذلك في أرض الانباط بشمال الجزيرة العربية، وفي فلسطين حتى مجيء الاسلام، وبين الطوائف اليهودية في بلاد الرافدين.

تحول الآرامية الى السريانية

تمثل الكتابة السريانية، الآرامية الاصلية، وهي التي استخدمها مسيحيو سورية، بل إنها انتشرت شرقا الى حدود الهند والصين، وشمالا في بلاد الاناضول، كما وجدت كذلك بين الطوائف المسيحية في مصر والجزيرة العربية.

ومن الخطأ اعتبار اللغة السريانية احدى لهجات الآرامية تبعا للمستشرقين[٢١]، لأن السريانية هي عين اللغة الآرامية المعروفة في التاريخ والتي اشتهرت قبل الميلاد بمئات من السنين، والآثار الأدبية التي ظهرت اخيرا تؤيد هذا القول، ولا سيما كتاب أحيقار وزير سنحاريب ملك آشور[٢٢].

وقد ظهرت اللغة الآرامية في العصر المسيحي في صورة لهجتين: الغربية والشرقية[٢٣]، وكانت السريانية الآرامية هي التي كانت سائدة في سورية والعراق وفلسطين منذ القرن السادس قبل المسيح.

والباحثون من أهل التحقيق قد اتفقوا على أن اليهود في زمن يسوع المسيح لم يكونوا يتكلمون العبرية لغة أجدادهم التي تكلم بها موسى وداود، بل السريانية التي كانوا قد تعلموها في بابل عندما سباهم اليها نبوخذ نصر في سنة ٦٨٦ق.م.

وإذا ما عدنا الى الكتاب المقدس لرأيناه يعرف اللغة السريانية (الآرامية) دائما،

٢٠- المطران يوسف داود: المرجع السابق، ص ٤٠.

21- Encyclopedia Britannica, London 1980. تحت بند (الآداب السريانية).

٢٢- مجلة الشرق المسيحي، عدد ٤، ص٣٦٣، وعدد ١ ص١٠٦- ١٠٨ لعام ١٩٠٨.

٢٣- مجلة الحكمة. القدس سنة ١٩٢٩ ص٤٥٤.

وقد انكر العلماء الشرقيون كون اللغة السريانية فرعا للآرامية انكارا تاما[٢٤]، وايدوا كونها لغة واحدة. وكثيرا ما يرد ذكر الكلمتين للغة واحدة فيقولون: اللغة السريانية الآرامية، أو الآرامية السريانية[٢٥].

وبحكم الزمن نبذ السريان اسمهم القديم (الآرامي)، وأصبحوا يسمون أنفسهم (سرياني)، والمتكلمون بالسريانية العامية الى اليوم لا يتخذون اسم السرياني علما للجنس أو اللغة بل للدين، فيقولون (سرياني) المرادفة عندهم لكلمة نصراني أو مسيحي[٢٦].

لهذا نرى أن لا فرق بين السريانية والآرامية، فهما لفظتان مترادفتان، رغم اختلاف ذكرهما وتعدد لهجاتهما، ولا يمكن أن تسمى السريانية احدى اللغات الآرامية، بل ادى بها تقادم العهد الى ارتداء حلة جديدة، أو يمكن القول أن السريانية هي تحديث للآرامية.

وقد لاقت اللغة السريانية انتشارا واسعا في البلاد الآرامية، وتجاوزتها الى البلدان المجاورة مثل آسيا الصغرى، وارمينيا، وبلاد العرب، ومصر وصولا إلى بلاد الصين والهند. ولقد تبناها اليهود انفسهم، وفضلوها على اللغة العبرانية، وكتبوا بها بعض أسفار الكتاب المقدس، واستمروا يتكلمون بها حتى في أيام المسيح الذي تكلم بها هو نفسه، ومريم أمه، وتلاميذه، وبها كتب انجيل متي، والرسالة الى العبرانيين، وظلت قيد الاستعمال حتى ١٢٣١ ميلادية كما أسلفنا.

وتعتبر لهجة مدينة (الرها)، التي هي اليوم (اورفا) في جنوب تركيا، من أفصح لهجات اللغة السريانية بأكملها، واليها نقلت أسفار الكتاب المقدس، والصلوات، والرتب الكنسية، واليها ترجمت كتب اليونانيين الدينية والعلمية والتاريخية والأدبية.

٢٤- المطران يوسف داود: المرجع السابق، ص٨.

٢٥- الاب اسحق سالا: معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى: العرب، الآراميين، العبرانيين، مجلة العربي - الكويت العدد ٩١ حزيران ١٩٦٦.

٢٦- قاموس منا السرياني - العربي تحت لفظة (سوريويو).

إننا لو نظرنا الى اللغة السريانية الحية الموجودة الى اليوم نراها تقسم الى قسمين[٢٧]: لغة فصحى مكتوبة، ولغة غير مكتوبة، الفصحى هي التي استعملها المسيحيون الاولون في طقوسهم، وهي نفس اللغة التي كتب بها الادباء السريان قبل المسيح بمدة لا بأس بها [٢٨]، وقد ظلت محافظة على طابعها وخواصها حتى اليوم، حيث لم يطرأ عليها أي تغير جوهري، والى هذه اللغة ترجم الكتاب المقدس في القرن الاول، وفيها أودع آباء الكنيسة السريانية بنات افكارهم من أدب وعلم ولاهوت، وذلك في مصنفات ضخمة، وهي التي عنى بها المستشرقون اخيرا، وفتحوا كنوزها للعالم أجمع. وقد شجع الرسول العربي (محمد) عليه الصلاة والسلام على تعلمها[٢٩].

كما أن للسريانية الفصحى لهجة شرقية واخرى غربية، فالشرقية اليوم هي اللغة الطقسية للكلدان والنساطرة، والغربية هي اللغة الطقسية للكنيسة السريانية والسريان الكاثوليك والموارنة [٣٠]. والفروق بين اللهجتين الشرقية والغربية لفظية بحتة، أما أصولها وقواعدها فهي واحدة، وأصحاب اللهجة الشرقية يفتخرون باتخاذ الاسماء السريانية، فترى في معظم الاحيان أن اسماءهم هي سريانية لفظا ومعنى، في حين أن اللهجة الغربية هي اللهجة الرهاوية، وهي من أفصح اللهجات الآرامية.

يبقى أن نقول أن للسريانية مزايا وخصائص كثيرة جليلة انفردت بها عن سائر اللغات السامية، فهي تتميز بغزارة مادتها، وغناها اللفظي، ودقة تعابيرها، فضلا عما فيها من طرف الايجاز، وضروب الكناية والمجاز.

وقد قسم الدكتور فيليب حتي عهد حضارة الادب السرياني الى ثلاثة عصور:

١– العصر الوثني.

٢– عصر قيام المسيحية الى الفتح العربي.

٢٧– مجموعة من المؤلفين: السريان: نشأتهم – انتشارهم – تراثهم. مركز الدراسات والابحاث الرعوية انطلياس، لبنان ١٩٩٥، ص١١.

٢٨– المجلة البطريركية، تصدر عن بطريركية السريان الارثوذكس – دمشق عدد ٦٨ عام ١٩٦٩ ص٤١٦.

٢٩– ابو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الاعشى ج١، وزارة الارشاد القومي– القاهرة ص١٦٥.

٣٠– البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث: البراهين الحسنة على تقارض السريانية والعربية– دمشق ص١٤.

٣- عصر قيام الاسلام الى الفتح المغولي.

ورب سائل يقول: اذا كانت سعة انتشار اللغة تفقدها شيئا من عناصر اللغة الام التي انفصلت عنها، فلماذا لم تفقد العربية هذه العناصر يوم انتشرت ذلك الانتشار العظيم بعد الفتح الاسلامي؟

يجيب عن ذلك د. فيليب حتي بإن انتشار السريانية بدأ بعد انفصالها عن أمها، في حين ان العربية حافظت عقب انفصالها على عزلتها دهراً طويلاً، قبل ان تنتشر انتشارها العظيم، وذلك مما ساعدها بلا شك على التثبت بالاصول القديمة[٣١].

ويتضح مما تقدم أنه ليس فيما اوردناه شيء من الابهام والغموض، فكون العربية أقرب اللغات السامية الى الاصل لا يمنعنا من تقديم غيرها من اللغات السامية عليها باعتبار القدم، وذلك من حيث الجنسية والآداب، فالسريانية من حيث الجنسية هي أقدم اللغات السامية فتبعد عن سام اجيالا. وكذلك من حيث الآداب فإن آداب العربية من أحدث الآداب السامية عهدا وأصغرها سنا، فهي بنت البارحة مقارنة بقدم الآداب السريانية[٣٢]، كما يتبين من الجدول الآتي الذي اورده العلامة نيكولسن في مقدمة كتابه (تاريخ الادب العربي):

- البابلية والاشورية من ٣٠٠٠ق.م. الى ٥٠٠ق.م.
- العبرانية من ١٥٠٠ ق.م.
- الحميرية من ٨٠٠ق.م.
- الآرامية من ٨٠٠ق.م.
- الفينيقية من ٧٠٠ ق.م.
- الحبشية من ٣٥٠ بعدالميلاد.

٣١- فيليب حتى: اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان، ١٧٣.

٣٢- تحرص مراكز البحوث الراقية التي تختص بدراسات اللغات السامية على أن يكون لها متخصصين في اللغة السريانية. وفي ذلك نقرأ أنه بناء على دعوة الاستاذ أحمد لطفي السيد يوم كان مسؤولا عن دار الكتب المصرية انشئ مجمع لغوي على غرار الاكاديمية الفرنسية أيضا، وبلغ اعضاؤه ٢٨ عضوا من بينهم ٢٥ مصريا وعربيا، وعضوا ايراني (فارسي)، وآخر عبراني، وثالث سرياني. مجلة العربي- الكويت. مايو ١٩٦٩، ص١٢٨.

- العربية من ٥٠٠ بعدالميلاد.

وأقدم أثر بالعربية عثر عليه العلماء حتى الآن، هو كتابة وجدت في زبد للجنوب الشرقي من حلب، وهو مثلث اللغات: سرياني، اغريقي، عربي، ويرجع الى مسيحيين في السنة ٥١٢م، فهو أقدم خط عربي، وأخرى في حران جنوبي دمشق من اعمال اللجا، ويمكن أن نميز هذه ونتبينها بانها عربية بحتة لم تكتب قبل الاسلام بأكثر من نصف قرن وبعض عقد منه.

أما الكتابات اليهودية اللحيانية التي اكتشفت في شمالي الحجاز ونجد، والكتابات الصفوية، فتاريخها يرتقي إلى القرون الاولى بعد المسيح، ولكننا بالجهد يجوز لنا أن نعتبرها عربية، وهي تعرف في اصطلاح علماء المشرقيات بتعبير (Pre-Arabic)، أي الكتابات السابقة للعربية[٣٣]. هذا في حين أن أقدم كتابة سريانية وجدت للآن هي لملك من ملوك حماه اسمه (زاكر) كتبها في القرن الثامن قبل المسيح، وكتابات اخرى وجدت في سنجولي على أطراف سورية الشمالية يعود عهدها للقرن الثامن أيضا[٣٤].

وصادفت العربية عند انتشار الاسلام عدة لغات، منها العامية وهي السريانية، ولغة المثقفين وهي اليونانية. وتغلبت العربية على كل ذلك واستقرت في ربوع الشام[٣٥].

ولتبيان ذلك نقول أن اللغة السريانية اخذت بالانحسار منذ بدء هذه المرحلة، ولا سيما الفصحى التي اختفت من البيت والشارع والتعامل، واعتصمت في الكنيسة والمعبد كلغة طقس فقط.

وأما سكان القرى والريف في طور عبدين والموصل فاخذوا يتحدثون بالسريانية العامية، وبدلاً من أن يشجع سكان المدن أهل الريف والقرى لاحتفاظهم

٣٣- في نمارة بخوران نقش يعود إلى سنة ٢٢٣ لعهد بصرى (٣٢٨ من العهد الميلادي) والنقش مدون على قبر (امرئ القيس بن عمرو ملك جميع العرب الذي لبس التاج واخضع اسد ونزار وملكيهما). والمظنون أن امرأ القيس هذا ملك لخمي من الحيرة، حكم بين السنين ٢٥٠ و٣٣٠ب.م. والكتابة بحرف غير صفوي، بل هي قريبة الى الحرف النبطي.
الشيخ نسيب وهيبه الخازن: من الساميين الى العرب. دار مكتبة الحياة- بيروت ١٩٦٤،ص٧٠.

٣٤- فيليب حتي: اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان، ص١٧٠.

٣٥- د. ابراهيم انيس- اللغة بين القومية والعالمية. دار المعارف بمصر ١٩٧٠، ص١٨٩.

بالسريانية صاروا ينتقصون منهم فيدعون لغتهم بـ(الفلاحية). كما نجد لغتين غريبتين تسودان على البيت السرياني ومعمله ومصنعه ومكتبه هما الارمنية والكردية. فقد سادت اللغة الارمنيةبعض مناطق الرها وخربوت، وسيطرت اللغة الكردية على جزء من منطقة طور عبدين كأبرشية سعرد، والبشيرية، وجزيرة ابن عمرو[٣٦].

كما أن الارمنية تغلغلت في عمق الفكر السرياني منذ القرن الثاني عشر، حيث نقلت بعض الكتب السريانية الى الأرمنية في هذه الفترة.

نعود الى القول إن اللغة السريانية أخذت تتغلب عليها العربية، خصوصا في المدن، حيث تكاثر العرب بعد الفتح الاسلامي حتى أصبحت العامة من السريان في القرن العاشر، أعرف بالعربية منهم بالسريانية. ولعل ذلك هو الذي حمل ايليا بن شينا النصيبيني في القرن العاشر على جعل شرح كتابه في النحو السرياني بالعربية، مما لا يدل على وجود نعرة شعوبية أو أي نزعة طائفية لدى السريان.

ولما اضحت العربية هي اللغة الرئيسة والرسمية للسريان، بادر الآباء الى نقل التراث السرياني الى العربية، وكتبوها بحروف سريانية (وسموا تلك الكتابة (الكرشونية)، وهي كلمة تعني قريش، ثم دخلت التراتيل الدينية في كنائسهم)[٣٧]، وكانت هذه من ابرز نشاطات الحركة الثقافية في مرحلتها الثالثة. ويذكر المطران اسحق سالا «ان الملكيين عندما نقلوا طقوسهم من السريانية الى العربية في البلاد السورية، وكانت الرعية تجهل اللغة السريانية، فقد رأى البطريرك شكر الله ١٧٢٢-١٧٤٥م رواج سوق البدع عصرئذ، وهو ما عطف نظره الى نشر العلم الديني بين الاكليروس والشعب تنويراً للاذهان، فامر المعلم البارع الراهب الاب عبد النور الآمدي بنقل مجموعة كبيرة من كتب الاباء الى العربية»[٣٨].

٣٦- الاب يوسف سعيد: المجلة البطريركية- دمشق مجلد ١٦ ص٨٤-٨٧.
٣٧- نعمة الله دنو: التراتيل الروحية. الطبعة الثانية، بغداد ١٩٦٢، ص١١.
٣٨- المطران اسحق سالا: السريان- ايمان وحضارة، ج٤، دراسات سريانية - حلب ١٩٨٣، ص١٠١.

كلمة السريان

كان الآريون القدماء يطلقون على الشمس اسم (سورية)[٣٩]، بينما كان الاغريق هم الذين اطلقوا على الآراميين اسم سوريين. ويقول هيرودوت إن اسم (سورية) هو الطريقة البدائية لكتابة اسم (آشور)، ولكن الباحث الالماني (وينكلا) ارجع هذه التسمية الى كلمة (سوري) التي وردت في الكتابات البابلية بمعنى (الغرب)[٤٠].

ويرى فيليب حتي «أن اليونان كانوا يسمون بلاد آرام سورية»[٤١]، ولكن لا توجد في الغالب صلة في الاشتقاق بين (سورية) و(أسيريا) و(آشور)[٤٢]، ويوافق المستشرق ارنست هرفتزلد هذا الاشتقاق[٤٣]، وكما اطلق اليونان اسم سورية عليها، كذلك أطلقوا اسم السريان عليهم.

وكان اسم سيروس (Syrus) (سوري) بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية، غير أن ولاية سورية الرومانية كانت تمتد من الفرات الى مصر[٤٤].

ونقل عن ابن الصليبي قوله «لكنهم .. أعني اليونانيين يسموننا السريان تعييرا لنا، ونحن نرد عليهم قائلين إن اسم السريان الذي سلبتموه عنا ليس عندنا من الاسماء الشريفة لكونه متأتيا من اسم سورس الذي ملك في انطاكية، فدعيت باسمه سورية، أما نحن فاننا من بني آرام، وباسمه كنا نسمى يوما آراميين»[٤٥].

٣٩- محمد علي المغربي: الكلف الشمسي. سلسلة اقرأ رقم ١٩٨. دار المعارف بمصر ١٩٥٩، ص٦٧

٤٠- مجلة لسان المشرق الموصلية. العدد السابع. السنة الثالثة، ص٢٥٣.

٤١- فيليب حتي: المرجع السابق. ج١، ص ١٨٤.

٤٢- فيليب حتي: نفسه والصفحة.

٤٣- ارنست هرفتزلد: مجلة المجمع العلمي العربي، ٢٢٢ (١٩٤٧)، ص١٧٨-١٨١.

٤٤- فيليب حتى : المرجع السابق. ج١، ص ١٨٩.

٤٥- القس يعقوب الكلداني: دليل الراغبين في لغة الآراميين. طبع في الموصل في دير الآباء الدومينيكيين ١٩٠٠، ص ١٠.

كما يذكر أدي شير أن اسم السريان «اسم غريب خارجي أطلقه المصريون ثم اليونان على أهل سورية، ومن اليونان استعاره الآراميون الغربيون، ومن السريان الغربيين سرى الى المتنصرين من الكلدان الآثوريين لانه من سورية أتتهم المسيحية، فتسموا باسم السريان تمييزا لهم عن الكلدان الآثوريين الوثنيين، فلم يكن الاسم السرياني يومئذ يشير الى أمة، بل الى الديانة المسيحية لا غير»[٤٦].

أما القس يعقوب الكلداني فيقول «أمر اشتقاق لفظ (السريان)، فإن اصحابه لم يعرفوا به قبل اربعمائة أو خمسمائة سنة قبل التاريخ المسيحي على يد الرسل الذين تلمذوا هذه الديار، لأنهم كانوا جميعا من سورية وفلسطين، وذلك اذا كان أجدادهم الاولون المتنصرون شديدي التمسك بالدين المسيحي أحبوا أن يسموا باسم مبشريهم، فتركوا إسمهم القديم، واتخذوا اسم السريان ليمتازوا عن بني جنسهم الآراميين الوثنيين، ولذا أصبحت لفظة الآرامي مرادفة للفظة الصابي والوثني، ولفظة السرياني مرادفة للفظة المسيحي والنصراني»[٤٧].

ويقول المطران يوسف داود «الى يومنا هذا نرى الكلدان الآثوريين لا يتخذون لفظة سرياني للدلالة على الجنسية، بل على الديانة، فإن هذا الاسم عندهم مرادف لاسم مسيحي من أي أمة وجنس كان»[٤٨].

ويأتي المؤرخ العالمي ارنولد توينبي ليناقض هؤلاء قائلا: «أسهم سكان البحر الإبيض في عشر حضارات: (المصرية، السومرية، المينووية، السريانية، الهلينية، الغربية، المسيحية الارثوذكسية (الاصلية)، الايرانية، العربية، البابلية)[٤٩].

ويذهب الدكتور فيليب حتي الى القول «حين اتخذ المسيحيون الآراميون لهجة أديسا، وجعلوها لغة الكنيسة والادب والتعامل الثقافي، صاروا يعرفون باسم

٤٦– أدي شير: المرجع السابق، ص١.

٤٧– القس يعقوب الكلداني: المرجع السابق، ص١٨٤.

٤٨– المطران يوسف داود: المرجع السابق، ص١١.

٤٩– فؤاد شبل: منهاج توينبي التاريخي دار الكاتب العربي للطباعة والنشر– القاهرة ١٩٦٨، ص٢٧.

سوريين، وأطبخ لاسمهم القديم، أي الآراميين، مدلول وثني غير مستحب في عقولهم، ولذلك تجنبوه بوجه العموم، وحلت محله التعابير اليونانية، وهي سوري بالنسبة للشعب، وسرياني بالنسبة للغة»(٥٠).

كما عرض أدي شير للأوجه المختلفة لتسمية السريان، فذكر أن «للكلدان المسيحيين أسماء كثيرة في التواريخ، فسموا آراميين نسبة الى آرام بن سام الذي استوطن في هذه البلاد، وعمرها بنسله، وفرسا لكونهم وجدوا في مملكتهم، ومشارقة لانهم في المشرق، ونساطره لاتباعهم تعاليم نسطور بطوريرك للقسطنطينية، وسريانا شرقيين تمييزا لهم عن السريان الغربيين وهم اليعاقبة، ولكن اسمهم الاصلي كلدان أثوريون جنسا ووطنا لان منشأ كنيستهم ومركزها كلدو وآثور ولغتهم الجنسية والطقسية هي الكلدانية، ويقال لها أيضا الآرامية، وغلطا سميت سريانية، كما أنه غلطا أيضا سمي النصارى سريانا»(٥١).

ويضيف أدي شير «وقد تحقق أن السريان اليعاقبة أيضا اقروا أن أصلهم كلدان آثوريون جنسا ولغة، وأن اسم السريان هو يوناني خارجي أطلق غلطا وزورا عليهم»(٥٢).

ويبقى هذا الكلام مجرد افتراض اكثر من نص مدعوم وموثق، فالشواهد التالية التي سنوردها تبقي رأيا لاصحابها، كل أرخ من وجهة نظره تاريخ السريان.

فالمسعودي يقول تحت عنوان (ذكر ملوك السريانيين ولمع من أخبارهم): «إن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان، وقد تنوزع فيهم وفي النبط، فمن الناس من رأى السريان وهم النبط، ومنهم من رأى انهم أخوة لولد ماس بن نبيط، ومنهم من رأى غير ذلك»(٥٣).

كما يرى المسعودي ان اللسان السرياني «هو اللسان الأول، لسان آدم ونوح

٥٠– فيليب حتى: المرجع السابق.
٥١– ادي شير: المرجع السابق.
٥٢– ادي شير: نفسه.
٥٣– ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب، ج١. المطبعة البهية المصرية– القاهرة ١٣٤٦هـ، ص ١٢٩.

وابراهيم عليهم السلام، وغيرهم من الانبياء»[٥٤].

ويرى الجهشياري أن «أول من وضع الكتاب السرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام»[٥٥].

في حين يذكر القلقشندي «أن لغة العرب المستعربة وهم بنو قحطان بن عامر وبنوا إسماعيل كانت السريانية أو العبرية لأن لغة عامر واسماعيل كانت سريانية أو عبرانية»[٥٦].

وما قاله المسعودي جعل ابن خلدون يعلق عليه قائلا: «إن المسعودي سمى من ملوك السريانيين تسعة متعاقبين في مائة سنة أو فوقها باسماء أعجمية لا فائدة في نقلها لقلة الوثوق بالإصول التي بين ايدينا من كتبه، وكثرة التغيير في الإسماء الاعجمية»[٥٧].

ويقول الأب أسحق سالا بصدد تسمية السريان في سورية: «من المقرر تاريخيا أنه في القرن الخامس ق.م. اندمج الآراميون في الآثوريين، وخضعوا لهم، وأصبحوا أمة واحدة، وبسطوا سلطانهم على سورية الداخلة (سورية الحالية- ما بين النهرين- فلسين- لبنان)، ولما وصل اليونان الاقدمون هذه البلاد ورأوها خاضعة لسلطة ملوك آثور اطلقوا عليها سورية المعدولة عن آثور أو آثوري، وذلك بان ابدلوا الثاء بالسين لسهولة اللفظ وقالوا (آسور) أو (آسوري)، ثم لمزيد من لسهولة خذفوا الف الابتداء فصارت (سوريا) و (سوري)، ومنها اتت لفظة السريان، وعليه أن أصل التسمية معدولة ومنسوبة الى آثور، كما أن لفظة الآرامي منسوبة الى آرام اخيه. واخطأ من زعم أن الآراميين تركوا اسمهم القديم، واتخذوا لانفسهم

٥٤- ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: التنبيه والاشراف طبع المصاوي بالقاهرة المرجع السابق، ص٤٧ .

٥٥- ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب. مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٣٨، ص٨٣.

٥٦- القلقشندي: صبح الاعشى، ج١، ص٣١٨.

٥٧- ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر ج٢، ص٧٠.

(السريان) تسمية جديدة، إنما اصبح الطرفان يسميان بكلتا التسميتين، إلا أن لفظة السريان كانت الاغلب والاعم»[٥٨].

وقد استعمل اسم (سوري) بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها، غير أنه يستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية السورية فقط كمصطلح لغوي، فان إسم (سوري) (Syrian) بالانكليزية يشير الى جميع الشعوب التي تتكلم السريانية (الآرامية)، ومنهم الذين في العراق وسورية ولبنان والاردن، وبقية بلاد الاغتراب، وحتى في جنوبي الهند.

واللغة العربية تميز بين هذه التسميات فتستعمل اسم (سوري) للمفهوم العرقي والجغرافي، واسم (سرياني) للمفهوم اللغوي والديني.

وعلى هذا يمكن القول إن الاسم السرياني أصبح اسما جنسيا أو وطنيا لكل من يقطن هذه البلاد، ولما جاءت المسيحية من سورية الجنوبية كانوا (سريانا) حسبما دعاهم المؤرخون في القرون الاولى للمسيحية، فكل من قبل تعاليمهم بالمسيح كان يفاخر بكونه (سريانيا)، لذلك أصبح الاسم (السرياني) علما للدين بالاضافة الى الجنس واللغة، بينما أمسى الاسم (الآرامي) مرادفا للوثني[٥٩].

٥٨– الاب اسحق سالا: المرجع السابق. ص ١٥٠.

٥٩– الخوري برصوم أيوب: مجلة الضاد – حلب. العددان ١١ و ١٢، سنة ١٩٩٥.

الفصل الثاني

الكنيسة السريانية



قبل مجيء المسيحية كانت الوثنية واليهودية منتشرتين في المنطقة، وكان الروم والفرس يحكمانها، فلما أتت المسيحية جابهت مقاومة عنيفة من الحكومة الرومانية، وكان بعض الشعب الوثني يرمي المسيحيين باشنع التهم وافظعها، وأما اليهود فقد كانت لهم وقفة خاصة من خلال موقفين مختلفين، فكثيرون رأوا رجاء النبوات مكملا في يسوع، فصاروا الاعضاء الغيورين في الكنيسة الاولى الفتية، ووقف قسم منهم موقف المعاكس العنيد المتعصب.

من هنا كان مجيء المسيحية في وسط عواصف من التزمت والتعصب ضمن مجتمع تتفاعل فيه القوى الدينية الفاسدة، فكان جهاد الكنيسة يتلخص بمصارعة القوى المعادية لها على الجبهتين، من الخارج ومن الداخل، كما ترسم الاباء الرسوليون خطوات رسول الجهاد، سواء بالقلم أو باللسان أو بسفك الدم(٦٠).

ولما اعتنق الآراميون الديانة المسيحية اتخذوا بالمعمودية اسم السريان، وصاروا يسمون بلادهم سورية، ولغتهم السريانية لكي يمتازوا عمن حافظ على وثنيته من بني جنسهم، فكانت لفظة سرياني مرادفة للفظة مسيحي، وذلك لأن كلمة آرامي كانت في الادب اليهودي مرادفة لكلمة (وثني).

ومن خلال اللغة السريانية نزل جانب من الكتاب المقدس من الله على قلوب اوليائه، ذلك ان معظم نبوة دانيال، وجزءاً من سفر عزرا وسفر نحميا، وغير ذلك من العهد القديم كتب في الأصل باللغة السريانية، ويرجح ان انجيل متى وغيره من أسفار العهد الجديد كتبت في الاصل بهذه اللغة، ثم ان يسوع المسيح وأمه العذراء ورسله الاطهار تكلموا بها كما تقدم القول، اذ أنها لغة فلسطين المحكية في ذلك العهد(٦١).

٦٠- المطران اسحق سالا: السريان- ايمان وحضارة. ج٢، دراسات سريانية - حلب ١٩٨٣، ص٩٤.

٦١- حسن حسين: الكنز في قواعد اللغة العبرية، من المقدمة، طبع القاهرة، ص٢٥.

إن الكنيسة السريانية الارثوذكسية هي كنيسة انطاكية، تأسست في فجر المسيحية، يوم كانت انطاكية عاصمة سورية [٦٢]، واحدى العواصم الثلاث في الدولة الرومانية، وفيها تنصر اليهود والوثنيون من آراميين ويونان وعرب. كما نشر فيها الرسول بطرس تعاليم الانجيل، واتخذوها مقر الكرسي الرسولي سنة ٣٧م على الارجح. كما أن اتباع يسوع المسيح سموا مسيحيين لاول مرة في انطاكية[٦٣].

وعلى هذا تعتبر كنيسة انطاكية أقدم الكنائس المسيحية وأشهرها بعد كنيسة اورشليم، وقد ازدادت أهميتها بعد خراب اورشليم سنة ٧٠م على يد طيطس الروماني، ومنها انطلق التلاميذ الى انحاء العالم المعروفة عصرئذ، فنشروا تعاليم الانجيل، وأسسوا الكنائس والاديرة والمدارس، وقام فيها العلماء الافاضل الذين أناروا العالم بالعلوم الدينية والمدنية[٦٤]. ولآباء هذه الكنيسة فضل يذكر بالفخر في دراسة الكتاب المقدس بعهديه، فقد نقلوه الى لغتهم السريانية بنقول، منها المعروفة بـ (البسيطة) كما نقلوه الى العربية والفارسية والمليالم - لغة جنوبي الهند - وتناولوه شرحا وتفسيرا، وتركوا لنا في ذلك بحوثا مستفيضة تعد مراجع مهمة في هذا المضمار[٦٥].

ويعد بطرس الرسول أول بطريرك سرياني جلس على الكرسي الرسولي، وتعاقب عليه بعده بطاركة عظام جلهم من صدور العلماء حتى وصلت الرئاسة الى قداسة البطريرك الحالي اغناطيوس زكا الاول عيواص، وهو البطريرك المائة والثاني والعشرون في عداد البطاركة الشرعيين.

وبسبب المتاعب التي تعرضت لها الكنيسة السريانية، فقد بقي مقر الكرسي الانطاكي في مدينة انطاكية حتى ١٥٨م، ومن ثم تنقل بين عدة اديرة في منطقة ما

٦٢- د. اسد رستم: تاريخ كنيسة مدينة الله العظمى انطاكية ج١ - بيروت ١٩٥٨، ص١٤.

٦٣- البطريرك زكا الاول عيواص: كنيسة انطاكية السريانية عبر العصور - حلب ١٩٨١، ص٣٠.

٦٤- البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث: تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية - بيروت ١٩٥٣ ص١٠ و١٥.

٦٥- نفسه، ص١١٧ و ١١٩..

بين النهرين حتى استقر في القرن الثالث عشر، في دير الزعفران قرب ماردين، ونقل الى حمص في عهد البطريرك افرام برصوم. ومنذ العام ١٩٥٩ اصبح في دمشق.

وفي وقت من الاوقات كان يوجد ثلاثة بطاركة في وقت واحد نتيجة للنزاعات والانقسامات التي حدثت في اركان الطائفة.

انشقاقات المجامع المقدسة

تعتقد الكنيسة السريانية مثل كيرلس الاسكندري، وبحسب معطيات مجمع أفس الاول المنعقد عام ٤٣١م بطبيعة واحدة ليسوع المسيح بعد الاتحاد العجيب بدون اختلاط وامتزاج أو استمالة، وبأقنوم واحد مركب من اقنومين، وتشجب تعاليم نسطور[٦٦]. والمنوفيستية[٦٧] ، واوطيخا[*] ، والخلقيدونية[**].

٦٦- النسطورية: مذهب اسسه نسطور ٣٨٠- ٤٠١ ميلادية على اثر مجمع افس المنعقد سنة ٤٣١، وينكر فيه على مريم العذراء لقب (أم الاله). بل يعتبرها أم المسيح الانسان. والمسيح في المذهب النسطوري مجرد إنسان خلقته الكلمة الالهية. وعلى إثر انشقاق حدث عام ١٥٥٢م تشعبت النسطورية الى شعبتين: واحدة كلدانية نسطورية. والاخرى اشورية نسطورية.

ينظر: ارنولد توينبي. مختصر دراسة للتاريخ ج١، ترجمة فؤاد محمد شبل،ص١٤٧.

٦٧- المنوفستية: قام هذا المذهب في القرن الخامس الميلادي كرد فعل ضد النسطورية، ويؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الالهية وحدها، وينكر من ثم الطبيعة البشرية على يسوع المسيح، ويؤمن بهذا المذهب في الوقت الحاضر اقباط مصر، ومسيحيو اثيوبيا.

ارنولد تونبي: المرجع السابق، ص١٤٨.

*اوطيخا: اسم لقس كان رئيسا لدير، انشأ مذهبا جديدا علي اثر عدم تفهمه عقيدة ماركيرلس الاسكندري بعمق، ففي الوقت الذي رأى فيه انتشار المذهب النسطوري قاومه بغيرة وقادة، ولكن عدم تمكنه بالعلم اللاهوتي اوصله إلى نقضه ذلك المذهب، وقال بطبيعة واحدة الهية استمالت اليها الطبيعة البشرية، وهو ما جعله يعاكس التعليم النسطوري والعقيدة الكبرلسية ايضا في آن واحد.

** الخلقيدونية: اتت هذه الكلمة من عقد مجيمع مقدس في خلقيدون عام ٤٥١ م انتهى بظهور طائفة الروم، واعقب ظهور هذه الانقسامات مذابح وحشية بين الفرقاء الاول والطائفة الاخيرة، لذا نرى ان ظهور الاسلام رحب به من قبل الطائفة السريانية اشد الترحيب.

وقد تم صراع عنيف بين هذه الكنيسة ومن انشق عنها من قوى نسطورية وخلقيدونية في الفترة الواقعة من عام ٤٥٢ الى عام ٥١٢، وهذا التاريخ هو الذي نصب فيه القديس مارسويريوس بطريركا لانطاكية.

وحين أتت المسيحية الى الجزيرة العربية كانت متأخرة، وخاصة بعد الانقسامات المسيحية، وبقيت قليلة التأثير لأنها لم تقدم للعرب صيغة من التوحيد تناسب ذهنيتهم الخاصة، ذلك أن التثليث كان صعب الفهم عليهم، في حين كانت صيغة الرب الواحد تناسبهم أكثر في مجتمع يقوم على رئيس عشيرة واحد، ورئيس قبيلة واحد، ومن المنطقي أن يكون أقرب الى مفهوم الرب الواحد.

كان للسريان قبائل وحكام في الجزيرة العربية منهم (أكيدر بن عبد الملك)، ومن قبائلهم (قضاعة)، وهي من تجمع قبيلة (كلب)، والى الآن تحمل بعض العشائر هناك اسماء مسيحية بعد اسلامها (بنو مطران، اليعاقبة، المها بدة، الاحبار، السماعنة). وكيف لنا أن ننسى قبيلة طي السريانية، ومنها حاتم الطائي المشهور في التاريخ العربي، وبه يضرب المثل بالكرم.

ومما اشتهر في الجزيرة العربية في أواخر القرن السادس، وأوائل السابع للميلاد (قس بن ساعدة الايادي) اسقف نجران الذي دعي حكيم العرب، وخطيبها وشاعرها، و(ورقة بن نوفل بن اسد) المتوفي نحو سنة ٦١١م اسقف مكة التي كانت مليئة بالنصارى، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد زوجة الرسول العربي الكريم، وكان معظم قريش من النصارى (وهم يمثلون علية القوم)، والقسم الاكبر منهم كانوا من السريان الارثوذكس، وكذلك معظم نصارى اليمن ونجران. ومهما كانت عقائد اولئك النصارى في الجزيرة العربية، فقد كان لهم تأثير كبير على العرب المسلمين هناك. وعلينا ألا ننسى بأن العقائد الدينية الرئيسة في المسيحية والاسلام متقاربة: مثل الايمان بالله الواحد ألاحد، خالق السماوات والارض، والايمان باليوم الاخير يوم البعث والنشور، والدينونة والحياة الابدية والجنة والجحيم... الخ: كما أن هناك حوادث تاريخية دينية لدى السريان ذكرها القرآن الكريم مثل حادثتي اصحاب الكهف والاخدود[٦٨].

٦٨- البطريرك زكا الاول عيوص: نظرات خاطفة في تاريخ كنيسة انطاكية السريانية المشترك مع الاسلام عبر العصور - دمشق ١٩٩٥، ص١٤.

اضافة إلى هذا وذاك فان الوجود السرياني كان قائما في البحرين وقطر وعمان واليمن، وكان ينافسه الوجود النسطوري.

والى ما قبل ظهور الاسلام بقيت الصراعات المسيحية السريانية والمنشقة عنها قائمة، تهمد حينا وتطفو غالبا، خاصة في السنوات المئتين الاخيرة قبل قدوم الاسلام، حيث كانت سورية بأسرها بيد العرب من الشمال الى الجنوب، كما تم فتح ما بين النهرين خلال عام ٦٣٩ و٦٤٦، وهكذا دخلت الكنيسة السريانية الارثوذكسية في حكم جديد هو حكم العرب المسلمين.

السريان وحكم الإسلام

اتسم رد فعل المسيحية على ظهور الإسلام باللين والاستلطاف، ولم تظهر اية مقاومة مسيحية مسلحة في شبه الجزيرة العربية، في وجه نشر الدين الإسلامي، ومن هنا سمى السريان عمر بن الخطاب بلسانهم السرياني (فوروقو) فاروق، أي مخلص ومنقذ لإنه انقذ السريان من حكم الروم والفرس، كما شملهم الإسلام بالامان، وصان حقوقهم بالعهود والمواثيق.

وقد كانت علاقة الرسول العربي مع النصارى جيدة، ولم يذكر التاريخ أي حادث فيه عداء، وهذا عكس ما ذكر عن تصرفات اليهود ضد الرسول، ومحاولات قتله. وفي هذا السياق نراه حين تعرض أتباعه للاضطهاد من قريش نصحهم بالذهاب إلى نصارى الحبشه الذين أكرموهم[٦٩]، وقد كانوا على المذهب اليعقوبي[٧٠]،

٦٩– ادوار حشوة: اثر المسيحيين المشرقيين على الحضارة العربية. محاضرة القيت في جمعية الشبان السريانية، دمشق يوم ٢٠-٩-٩٦ ضمن الموسم الثقافي للجمعية ١٩٩٦-١٩٩٧، وصدرت بكراس.

٧٠– اليعقوبي من اليعاقبة، اطلقت هذه التسمية على السريان الارثوذكس من أعدائهم، وهي تعود الى القديس مار يعقوب البرادعي المتوفي سنة ٥٧٨م، فقد قاوم الخلقيدونيين أشد مقاومة، ولكي يسيء أعداء الكنيسة السريانية اليها بدأوا ينعتوها باليعقوبية لئلا تحسب مع الكنائس الرسولية.

للتوسع عن حياة هذا القديس يراجع كتاب:

البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث: المجاهد الرسولي الاكبر مار يعقوب البرادعي– دمشق ١٩٧٨، ص٤٠.

ويتبعون الاسكندرية، ولذا يبدو مؤكدا أن مسيحية نجران كانت أيضاً يعقوبية، وجاءت في بداية الأمر من الحيرة، كما اسلفنا.

إن كثيراً من الخلفاء العباسيين تزوجوا من مسيحيات، فمن أصل ٣٠ خليفة عباسي كان ١٤ منهم من امهات مسيحيات.

لقد جرت ازالة المسيحية من شبه الجزيرة العربية تدريجياً، ولم يكن ذلك نتيجة سياسة كما في حال القبائل اليهودية الاخيرة المتمردة على الإسلام. وعندما أراد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧م-٧١٩م) من بني أمية أن يفرض على قبيلة تغلب الجزية المفروضة على مسيحيي الأراضي المفتوحة، بحجة أنهم كانوا يتعاطون الربا المحرم في الإسلام، فان عمله هذا كان لاجتذابهم إلى اعتناق الإسلام، أو عقابا لعدم دخولهم فيه، وهذا ما جعلهم يغادرون البلاد ويلجئون إلى العراق.[٧١]

وتبدو ردود فعل المسيحيين على الفتوح الإسلامية اللاحقة نفسها حيثما كانوا، من النيل إلى الفرات، فقد كان المسيحيون، وقد انهكتهم السيطرة البيزنطية، وأثارت سخطهم التدخلات التي كانت تمارسها البابوية- القيصرية في بيزنطة باسم العقيدة (الصحيحة) والنظام بعكس القائلين بالطبيعة الواحدة، يتوقون للانتقال الى حكم غير مسيحي يستطيعون أن ينالوا فيه استقلالا ذاتيا في شؤون دينهم وادارة داخلية لطائفتهم. ومن جانب آخر كان ضغط الضرائب الذي اخضعوا له في الامبراطورية البيزنطية، يسهم أيضاً، في أن يجنبهم أي خوف من تغيير الحاكم. وهكذا فان (ميخائيل السوري) بطريرك انطاكية اليعقوبي (السرياني) احتفل بسنوات عديدة فيما بعد باقتراب الجيش الاسلامي، واجداً فيه الغضب الالهي على الامبراطورية البيزنطية[٧٢].

اختلفت المعاهدات المعقودة بين الرسول والمسيحيين كلية وفق المكان المتعلق بها، الأمر الذي جعل من الصعب ايضاح قاعدة عامة جرى تطبيقها بنسق واحد على المسيحيين، بيد إننا نعرف نسبيا عددا من الاتفاقات جرى التفاوض فيها

٧١- لورانت شابري، آني شابري: سياسة واقليات في الشرق الادنى- الاسباب المؤدية للانفجار، ترجمة د.ذوقان قرقوط. مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٩١، ص١٩.

٧٢- نفسه، ص٢٠.

بين الجيش الاسلامي والطائفة المسيحية المحلية، في بعض الحالات، ونوه بها الاخباريون غالبا، مثل اتفاقية نجران، اذ ان هذه المدينة قد شاركت بمحض رغبتها، في جهد المسلمين الحربي، ولم يتم فتحها بالقوة، ذلك أن الطائفة المسيحية فيها لم تكره على دفع الجزية كسائر الطوائف غير المسلمة الاخرى. وعلى ما يبدو، فان هذا الإتفاق المعقود في عام ١٠ هجرية مع المسلمين قد جرى على قدم المساواة بمراعاة مصالح الطرفين[٧٣]. وفي مقابل دفع ضريبة معقولة فقط، وتقديم بعض التسهيلات (اعارة خيول وأعتدة) للجيش الاسلامي في حالة الحرب في اليمن، بتجديد خطي من الرسول نفسه ألا تجل بهؤلاء المحميين الذميين أية مهانة، وثمة نصوص أخرى، من مصادر مختلفة، يبدو أنها وضعت وفقا لضرورات سياسية أملتها الساعة الراهنة، ولا تبالي قط بالتناقضات التي يمكن أن تتحصل من مقارنتها. فلم يتم أبداً توحيد مجموعة من الشرائع الصحيحة التي تحكم العلاقات بين الاسلام والاديان السماوية الاخرى، فقط بعض القواعد التي روغيت مؤخرا لسد الحاجات. ولسوف يصرف النظر عنها بدورها حينا، أو تراعى حينا آخر وفقا للحكومة القائمة بحسب الظروف السياسية.

ومما قدمه السريان للمسلمين من خدمة تدل على التعاضد بينهم ما حدث وقت حصار المسلمين لدمشق إبان الفتح الاسلامي، فأكثر الترجيحات تؤكد أن أحد أبواب دمشق لم يفتح لخالد بن الوليد بعد حصاره لها مدة ستة أشهر إلا على يد أحد المسيحيين، إذ غدت دمشق فيما بعد عاصمة الامبراطورية الاسلامية، ومما يرجح ان هذا الشخص هو سرياني، لما تعرض له السريان من اضطهاد وقتل على يد جيش الروم[٧٤].

فقد كانت دمشق مدينة مسورة باحكام، محصورة الحدود بين الاسوار، تحيط بها من جميع جهاتها البساتين التي حوت بعض التجمعات السكنية المتفاوتة الاحجام. وفي فترة الفتوحات العربية وجدت عدة أديرة حول دمشق، نذكر منها دير

٧٣- لورانت شابري، آني شابري. المرجع السابق عن آرمان آبيل: عهد نجران وتطور حق أهل الكتاب في الاسلام، كورمترية ١٩٤٥، ص٢١.

٧٤- فيليب حتي: تاريخ العرب. ترجمة أدورد جرجي، وجبرائيل جبور. دار غندور - بيروت: ط ٥ ١٩٧٤، ص٢٠٦.

مران ودير خالد، وكان جل سكان المدينة من أصل عربي – سرياني غلبت عليهم المسيحية. وكانت المدينة بدون قلعة، تمحورت النشاطات فيها في الاسواق التي انتشرت حول كنيستها العظمى التي تحولت فيما بعد الى المسجد الاموي الجامع[٧٥].

واذا كان الغرب حاول ان يشوه وجه الحكام العرب ابان العصر العباسي، فان الكاتب السوري المجهول الذي أرخ لتلك المرحلة يحفظ لنا وجهة نظر أخرى قد تكون محايدة، فهو لم يكتف بوصف الحلم الذي كان يتحلى به عماد الدين زنكي ازاء المسيحيين الشرقيين فحسب، بل وصف أيضاً زيارته لكنائسهم وعلاقته الحميمة مع المطران اليعقوبي. واللهجة التي يكتب بها أمثال هؤلاء المؤرخين لها قميتها كبينة على العقلية التي كانت تسود أذهان الناس الذين ينتمون اليهم. لقد كتب ميخائيل السوري ومواطنه المجهول مقاطع تشهد بأن اللغة المشتركة والنسب المشترك بين معظم المسيحيين السوريين والمسلمين فيها يكونان رابطة أوثق عرى من العقيدة المسيحية التي يشاركون بها الفرنجة[٧٦]. فقد عاش المسيحيون السريان، والمؤمنون بالطبيعة الواحدة كافة، ولقرون عدة في ظل حكم اسلامي سمح.

اضطهاد الكنيسة السريانية

واجهت الكنيسة السريانية، ومن ثم شعبها الاضطهاد في الفترة التي اعقبت العصر الذهبي للعباسيين، كما حدث عام ٨٢٩م في مناطق طور عبدين ونصيبين وسنجار، وبعدها بين ١٠٧٥–١١٠٦م في تكريت من اعمال العراق، حيث هدم حاكمها كنيسة تكريت القلعة، وذلك عام ١٠٨٩م، وهو ما جعل السريان يهاجرون الى الموصل منذ القرن التاسع، وايضا إلى نصيبين وحران. كما يقال أن أسراً أخرى سريانية من تكريت نزحت الى مصر في خلال ١١٢٠–١٢٧٣م من اشهرها آل أبي الطيب.

٧٥– د. سهيل زكار: من ملامح الحياة الاجتماعية في دمشق في كتاب: دمشق اقدم مدينة في التاريخ. ندوة آذار الفكرية في مكتبة الاسد دمشق – سوريا ١٩٩١، ص١١٩.

٧٦– ر. سي. سميل: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر. ترجمة محمد وليد الجلاد. دار طلاس، دمشق، ص٩٥.

ومن الحوادث المؤسفة التي مرت بها الكنيسة السريانية حرق بيعة مارتوما في بغداد عام ١٠٠٢م، وفيها دفن الفيلسوف السرياني يحيى بن عدي، وفي مذيات عام ١١٤٥م، واضنه، وغيرها من الاماكن التي فيها دور عبادة سريانية.

وأصاب الكنيسة السريانية من المسيحيين الخلقيدونين الروم والصليبيين الشيء الكثير من الاذى، فمثلا عام ١٠٦٣م قبض الخلقيدونيون على البطريرك اثناسيوس الخامس، وبعض اساقفته، وألقوهم في السجن في دير الروم المعروف بمار ابدوفوس بقرب ملطية، ثم ذهبوا به الى القسطنطينية، وتوفي هناك عام ١٠٦٣م.

ولم يهادن السريان الصليبيين طوال السنوات التي قضوها في سورية. ويذكر ر. سي. سميل ان كنائس اليعاقبة (أي السريان) القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح، مع اليونان الارثوذكس، كانت منتشرة في جميع أنحاء سورية، وقد سعى الفرنجة الى كسب مودتهم والتفاهم معهم ولو ظاهريا. ومما لا شك فيه أن الفرنجة السوريين خلال القرن الثاني عشر كانوا يعدون رعاياهم من اليونان الارثوذكس جزءا من الكنيسة الكاثوليكية الموحدة، على العكس من اعترافهم بالارمن واليعاقبة طوائف مستقلة منفصلة. ومع أن الشعب الارمني كانت تشده الى الفرنجة روابط أوثق من أي شعب آخر في سورية، فلم يكن دائما محل ثقة تامة. والملاحظ كذلك أن ضعف ولائهم هذا كان ينكشف غالبا عندما يواجه الفرنجة مآزق حربية صعبة[٧٥].

ونتيجة للمضايقات التي تعرض لها السريان في الغزو الصليبي، اضطر بطريرك السريان ان يترك انطاكية، ويلجأ الى آمد في ديار بكر بعيدا عن أراضي الفرنجة، وكانت واجبات ميخائيل بطريرك السريان كثيرا ما تتطلب منه مغادرة انطاكية، والتوغل بعيدا في اراضي المسلمين .. الى آمد وماردين ونصيبين وملطية.

ويمكن القول ان المسيحيين السوريين لم يكونوا يشكلون أي أساس يعود عليه الحكم الصليبي، وأنهم زادوا في حدة المشاكل العسكرية الفرنجية أكثر مما لطفوها.

٧٧- ر.سي. سميل: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر. مرجع سابق. ص٩١.

وانعكست الاوضاع التي سادت سورية ابان الحكم الصليبي، وحتى بدايات القرن العشرين على السريان وكنيستهم، فمن المغول الى تيمورلنك الى المماليك كان الحكم ظالماً، لا سيما قد ظهر فيهم سلاطين بغاة سفاحون فاسدون. وتبع ذلك الحكم العثماني الذي كان عماده حكام اتصفوا بالظلم والطغيان، فانزلوا أشد المحن والشدائد بالاهالي. وقد عانت الكنيسة السريانية من جراء تلك الاحداث السياسية المضطربة، والحروب الطاحنة، والعهود السوداء معاناة شديدة، ومظالم وويلات، وطغيانا من سفك الدماء، الى القتل الجماعي، الى التشريد والتهجير، الى الاسر والسبي، الى ترك الدين، الى التعذيب وامتهان الكرامة، الى اندثار معاهد العلوم وضياع أصحاب المواهب، الى تخريب الكنائس ودور العبادة، وهدم الاديرة، واخيرا الى تغيير جغرافية المنطقة[٧٨].

ففي لبنان مثلا تشرد معظم السريان هنا وهناك، وانضم آخرون الى دين الفاتحين، واندمج الباقي منهم في المعتقد مع سائر جيرانهم المسيحيين (ملكيين وموارنة ولاتين)، وحتى الذين أموا لبنان من جهات اليمن، وما بين النهرين، والموصل، والنبك وتركيا، ذاب معظمهم في الطوائف الاخرى.

ونحن اذ نذكر ذلك فعلينا ان لا نغفل تلك الحركة الانفصالية التي اصابت الكنيسة في اواسط القرن السابع عشر ١٦٦٢م، واستفحلت في القرن التالي، حيث انشق من كنف الكنيسة الام قسم كبير من الاكليروس والشعب، وانضم الى الكنيسة الرومانية، واطلق عليهم من ثم اسم السريان الكاثوليك.

وسعى المرسلون اللاتين من الدومنيكان والفرنسيسكان منذ العام ١٣٣٣م الى نشر المذهب اللاتيني الروماني بين السريان الارثوذكسيين، والسريان النساطرة، والارمن الارثوذكسيين. ففي بغداد منح الرهبان الكبوشيون الفرنسيون مصلى في احدى الدور، وكان يتردد عليه السريان، وفي حلب عام ١٧٧٤م علق المطران ديونسيوس ميخائيل جروه بفخهم، وتبع مذهب اللاتين مع معظم الشعب والاكليروس، وفي دمشق تواجدت اسرة آل شيحا التي سبق أن هاجرت من بلاد ما

٧٨- المطران اسحق ساكا: المرجع السابق، ص٤١.

بين النهرين في مطلع القرن السابع عشر، وزاولت التجارة، واشتهرت بنفوذها لدى الولاة والسلاطين، وانشقت عن الكنيسة الام عام ١٧١٥م، وكذلك عدد من سريان دمشق وضواحيها كالصالحية، وراشيا، وعين حليا، وكفر فوق، وقلعة جندل، ثم قطنا. وبفضل نفوذ هذه العائلة (آل شيحا) استطاع الانفصاليون من السريان وضع اليد على الكنائس والاديرة السريانية. ومنذ الربع الاول من القرن التاسع عشر اعتنق سريان النبك المذهب الروماني، كما اعتنق الكثلكة اربعة مطارنة عام ١٨٣٣م، وهم مطارنة القدس، وماردين- ديار بكر، والشام، ومطران حمص وحماه وصدد والقريتين والنبك.

ويرجح أنه نحو عام ١٨٤٠م وضع المنشقون السريان الذين اتخذوا طريق الكثلكة يدهم على الكنيسة المقامة حتى الآن في منطقة باب شرقي، واتخذ من بقي من السريان كنيسة الارمن الارثوذكس العائدة الآن لهذه الطائفة، والمقامة ايضا في منطقة باب شرقي دارا للعبادة، وكان يأتيهم من حمص رجل دين ليصلي بينهم، ولبعد المسافة وصعوبة المواصلات، آنذاك، اندثر هؤلاء مع الطوائف الاخرى، ومن ثم فقد السريان الارثوذكس وجودهم في دمشق الى بداية القرن العشرين.

ويعزو المطران اسحق ساكا العوامل التي ساعدت على انتشار المذهب الروماني في الكنيسة السريانية الى أربعة أمور رئيسة هي:

١- فتور همة القوم عن طلب العلم الديني، وجهلهم لغة الآباء في هاتيك العصور المتأخرة، فتلاعبت بهم الاغراض، وامسوا طعمة لكل طالب.

٢- لعبت فرنسا الدور الاهم في كثلكة السريان الارثوذكس منذ عهد لويس الرابع عشر ١٦٤٣-١٧١٥م الذي اوصى السلطان العثماني بان يسهل ذلك، والى عهد الاستعمار الفرنسي حيث كانت فرنسا عبر مبشريها تعطي المساعدة والدعم لمن يتكثلك.

٣- الارهاب والسجن والنفي الذي شن على آباء وابناء الكنيسة السريانية في العهد العثماني.

٤- المعارك التي خاضتها الكنيسة الام مع المنفصلين عنها في مرافعات لاسترداد الكنائس التي اغتصبوها عقيب انفصالهم بمساعدة فرنسا التي كانت تضغط على الباب العالي بنفوذها السياسي. وقد استمرت هذه المرافعات مدة طويلة، فكانت الكنائس هذه تعاد الى اصحابها تارة، وطوراً تعطى للآخرين بحسب ثقل وخفة الضغط الذي كان يعانيه الباب العالي من النفوذ الاجنبي يومئذ (٧٩).

إن التدهور الذي اصاب ابناء الكنيسة السريانية الارثوذكسية، هو في المحصلة، نفس التدهور الذي اصاب العرب المسلمين، فالمقصلة كانت واحدة على رقبة هذا الشعب الذي تمده وطنيته بالصبر والعنفوان. واذا كان الجهل والتجاهل اصاب السريان في قمة معاناتهم، فان السريان الموارنة، والسريان المنفصلين في تلك الازمنة، كانت تعبق في كنائسهم ازاهير العلوم، بفضل المدارس التي وفرتها لهم فرنسا وروما. من ذلك البطريرك اسطفان الدويهي الماروني المتوفي عام ١٧٠٤م الذي تلقى العلم في مدرسة اللاهوت التي انشأها غريغوريوس الثالث عشر في روما عام ١٥٨٤م لاعداد الطلاب الموارنة للعمل الاكليريكي. ومن الذين تخرجوا من المعهد اللاهوتي الماروني في روما، نخبة ممتازة رفيعة المستوى، امثال جبرائيل الصهيوني ١٥٧٧-١٦٤٨، وابراهيم الحاقلاني ١٦٠٠-١٦٦٤م، ومن اشهرهم على الاطلاق يوسف سمعان السمعاني ١٦٨٧-١٧٦٨م صاحب الموسوعة الشرقية في اربعة مجلدات.

ولا يمكن اغفال الدور الكبير والعظيم الذي اضطلع به قداسة البطريرك افرام الاول برصوم في تربعه على العرش الانطاكي البطريركي خلال الاعوام ١٩٣٣-١٩٥٧م، فقد قاد الكنيسة الى الافضل، وحمل مشعل الثقافة السريانية عاليا بعد خمود طويل وركود مزمن، واعاد للكنيسة السريانية مجدها الضائع، وحمى تقاليدها الموروثة، واقام للثقافة السريانية عزا كبيرا. كما استطاع مذ كان مطرانا ان يقيم جسرا مع القادة الوطنيين ابان الاستقلال عن الاستعمار العثماني. وفي عهده يمكن القول ان الكنيسة وابناءها السريان استطاعوا ان يقفوا، ويلتقطوا انفاسهم بعد

٧٩- المطران اسحق ساكا: المرجع السابق، ص٧٧.

الضربات التي وجهت لهم كما سبق ذكره.. إنه العهد الوطني بالنسبة لهذا البطريرك الذي صادقه وتقرب اليه معظم زعماء البلاد الوطنيين.

وخلفه البطريرك يعقوب الثالث ١٩٥٧-١٩٨٠م فاتبع نهج سلفه. كما عمق من رسالة البطريرك افرام الاول برصوم مجيء تلميذه وسكرتيره بطريركاً الا وهو قداسة البطريرك زكا الاول عيواص (١٩٨٠-٠٠٠) الذي رسخ من نهوض الكنيسة السريانية، فكانت مشاريعه المهمة هنا وهناك بما يتساوى ومكانة هذه الطائفة المنسية، وأصبح رجل الدين لا يحمل كهنوته دون حمله لشهادة العلم والثقافة العالية بفضل المشروع الكبير الذي شيده في معرة صيدنايا- على مقربة من دمشق- كأكليريكية، كما اصبح هناك اكثر من ثلاثين رجل دين يتلقون دراسات عليا في اشهر الجامعات الغربية، وفي عهده استطاع ان يعيد رأب الصدع الذي اصاب الطائفة في الهند، التي يقدر عدد افرادها بثلاثة ملايين وتصف نسمة، فعادت اجنحتها المنشقة عنها الى بيتها الاول في دمشق، الى بطريركية السريان الارثوذكس.

الالحان السريانية الكنسية

يبقى ان ننوه، في صدد الحديث عن الكنيسة السريانية، الى ما توارث عنها من الحان كنسية شكلت عماد اجمل الالحان العربية في وقت متأخر.

وفي ذلك نشير الى أن دور الموسيقى ضمن الطقوس ما قبل المسيحية كان ذا أهمية اساسية، حيث كان يقوم بدور التعبير والوصف والسرد لمعاني النصوص الطقسية، من صراع الآلهة وحياتهم، كذلك لمعاني الموت والحياة، وصراع القوى الخفية في الطبيعة.

وحين جاءت المسيحية لم تلغ دور الموسيقى التعبيري والدرامي، بل استخدمته في طقوسها التي تعبر عن حياة يسوع المسيح، ومعاناته وموته وقيامته، وصراعه مع الشر، بشكل ابسط، مما كان في الوثنية، فأعظم الالحان الكلاسيكية التي ابدعها (موزارت) و (هايدن)، وغيرهما من العمالقة الموسيقيين كان منبعها

الكنيسة. وكانت (الجوقة)، وتعني في البداية مشاركة جمهور المصلين في بعض اقسام القداس في التراتيل، ثم أخذ يتطور ذلك، شيئا فشيئا، حتى أصبحت فرق الكورال شبه محترفه.

يقول قداسة البطريرك افرام برصوم: رضي ائمة الدين ادخال اللحون الى مبيعة الله لأسباب ثلاثة:

١- مناهضة الحان الوثنيين، واصحاب البدع، وقد حاولوا بها افساد قلوب الناشئة عقيدة وآدابا، فعارضوها باشعار جزلة دينية ادبية قضت على الاشعار الفاسدة.

٢- الاستعانة بها على النشاط في عبادة الله، ودفع الملل عن المصلين في اثناء تلاوة الفرض المطول.

٣- تنبيه الجواس الى ادراك معاني الصلاة، لان المصلين اذا ما ترنموا، أو سمعوا الترتيل استوعبوا معاني ما يرتلون، وكان ذلك اسرع الى اذهانهم، واوقع في نفوسهم، وأعمق في قلوبهم، وادعى الى الخشوع.

وعمل الأئمة في هذه الطريقة أسوة بداود النبي صاحب المزامير وجوقته المرتبة، فجروا في ميدانه، وعلى نهجه صنعوا الحانا لها نغم حسنة مؤلفة بعضها الى بعض على نسب متعارفة، وذلك بعد المجمع النيقاوي.

وأول من شدا بها عند السريان القديس افرام، وعند اليونان القديسون: غريغوريوس النزنيزي، فقورلس الاورشيلي، فاياونيس الذهبي الفم، وتابعهم من السريانيين مار اسحق، ومار رابولا، ومار بالاي، وجماعة الفخارين، فالقديسون يعقوب السروجي، وسويريوس الانطاكي اليوناني، ويعقوب الرهاوي، وناظمو التراتيل المسماة عند اليونانيين بالقوانين ونقلتها، وغيرهم ممن احتذى حذوهم على مر الايام، فصاغوا الالحان، واحكموا صنعتها، وتفننوا فيها (٨٠).

٨٠- البطريرك افرام برصوم: اللؤلؤ المنثور، مطبعة ابن العبري بدير مار اخرام السرياني. هولندا ١٩٨٧، ط٤، ص١٦.

وهذا ما نلمسه في الالحان السريانية الكنسية، فهي تراث موروث سماعيا، بلغنا عبر الجماعات المصلية التي لم تنقطع ابدا. فقد توارثت آذان جماعات المصلين هذا التراث الى أن بلغ الكنائس السريانية المحلية.

وكل نغمة من نغمات الموسيقى السريانية تفترض، ضمنا، صوتا من الطبقة الدنيا (الباص) يكون هو الاساس الهارموني الخفي، ولهذا ترتكز النغمة البادية بحسب علم التوافق، علما بان الموسيقى الشرقية عامة، ومنها السريانية، هي بطبعها احادية النغمة ذات صوت واحد (مونوفونيه)، ولا تقبل التوافق (الهارموني)، من ثم فان محلها من الاعراب يرجع الى ما يسبقها ويلحقها [٨١]. وهي وحدوية الحركات، فكل علامة موسيقية توازيها حركة وقغية في اللغة، ذات سلم محدود الاتساع، معظمها رباعي السلم، وفيها الثلاثي والخماسي، سلمها طبيعي غير معدل، حركات انغامها متجاورة الابعاد وايقاعها يقرب جدا من الوزن الشعري للكلمات، وهي مازالت حية تبعث من حناجر المصلين مع كل رفعة ابتهال.

ومع ذلك بقي قسم من حيوية هذه الالحان هنا وهناك في المدارس الدينية السريانية، مثل مدرسة دير الزعفران، ومدرسة طور عبدين (اي دير ماركبرئيل)، ومدرسة الرها. وهذه كانت اكثر المدارس حفظا لنوعية الاداء، وبقيت مستمرة حتى عام ١٩٧٠م حيث أن الشماسة والكهنة الرهاويين كانوا يقيمون هذه الاحتفالات والطقوس الدينية بشكل أكثر حيوية.

وجمع السريان، اناشيدهم وتسابيحهم البيعية في كتاب ضخم، اسموه (بيت كاز)، أي مخزن الالحان، وهو يحوي كل التراتيب التي تتعلق بالصلاة، وانشاد الاناشيد، والترتيل، وغير ذلك من مثل المداريش، اي الاناشيد الافرامية، التخشفتات، أي الابتهالات، والموربات، أي التعاظيم، والمبعرنات، أي مراحل تشييع الموتى، والشوباحات، أي التسابيح، وغيرها الكثير.

٨١- مقابلة مع الاب ايلي كسرواني في مجلة الحوادث- لندن ١٨/ ٩/ ١٩٨٧،ص٣٩.

ونلمس في الالحان السريانية الكنسية اسلوبين موسيقيين هما:

الاسلوب الاول: وهو القديم التقليدي للمزامير من القائية، ومن تنغيمية بسيطة.

والاسلوب الثاني: هو الجديد في التأليف الموسيقى الذي اعتمد على الالحان الشعبية، وألحان الآباء الذين ألفوا على غرار الالحان الشعبية.

والمزامير التي جاءت من العهد القديم شكلت مواداً أولية في الطقس السرياني والالحان السريانية، ثم جاءت بعدها نصوص جديدة من وحي المزامير وحياة يسوع المسيح، فكانت توجد الحان جديدة مختلفة عن نماذج الحان المزامير.

إن بعض نماذج الالحان السريانية الكنسية نلمسه فيما غنته، أو رتلته الفنانة الكبيرة فيروز، خاصة ما يخص اسبوع الآلام الذي يسبق يوم عيد القيامة.

الفصل الثالث

المؤثرات السريانية في الحضارة العربية والاسلامية



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

كانت السريانية هي الأرض التي نبتت بها العربية، وساعد العلماء السريان في جميع مراحل إزدهار العربية، على تعميقها وترسيخها، فكان عملهم مما لا يمكن المرور عليه، دون الدخول في تفاصيله.

إن حوادث التاريخ غزيرة متدفقة متشعبة، وليس بمقدور احد أن يحيط بها كلها. ومهما حاول المرء أن يحدد مجال دراسته، أو يضيّق الناحية التي ينظر إليها، فان الحقائق التي تنكشف له، أو يمكن أن تنكشف له، هي أكثر مما يستطيع استيعابه، وأغزر وأوسع نطاقاً. حتى أنه لو اقتصر على احداث معينة في تاريخ شعب من الشعوب، أو على مدة محدودة من سيرة إنسان، يظل هذا المجال الضيق المحدود يشمل احداثاً وافرة ليست كلها جديرة بالحفظ والتسجيل. وتتضح هذه الحقيقة ذاتها لأي منا عندما يستعرض حياته بكاملها، أو فترة محدودة منها، فانه يقف عند بعض حوادثها المتتابعة دون بعضها الآخر، ويهتم ببعض حلقات السلسلة دون سواها. ونطمح في هذا الفصل تناول المؤثرات السريانية في الحضارة العربية الإسلامية.

إذا كانت حياة الشعوب كحياة الافراد، فانه لابد لكل أمة أن تستقي من أخرى، فالصرح البشري لاتبنيه مداميك حضارة أمة دون سواها، بل كلها تجتمع لتظهره بشكله النهائي. ولكن الأمة العظمى، وذات المستوى العلمي الرفيع تعطي الشعوب أكثر مما تأخذ هي. وترجع أهمية هذه الأمور إلى قدرة أبناء كل شعب على اكتناز الفوائد، وجني الثمر المؤجل.

لقد قال العلامة رينان في كتابه (تاريخ اللغات السامية): «إن أهمية السريانية العظيمة قائمة بما لها من علاقة بالدروس اليونانية والمسيحية... والآثار المسيحية دفعت للتمحيص كثيراً من النصوص المهمة لتاريخ القرون الأولى المسيحية».

ولشرح ذلك يمكننا القول إن الفلسفة اليونانية تجاوزت أثينا إلى الاسكندرية، وهناك قطعت مرحلتها الثانية بعد أن انتهت مرحلتها الأولى. كانت مدرسة الاسكندرية في زمانها أرقى مدارس العالم لا ينازعها في ذلك منازع، وكان يُدَرّس فيها الطب والهندسة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية، وغيرها من

الموضوعات. وواحد من كبار أساتذتها كان يوحنا النحوي الذي نجهل تاريخ وفاته، وقد قام بالتدريس في الجامعة المذكورة يوم أغلق هوستنيان المدارس الاثينية. وكان قد اختص بفلسفة أرسطو، لأن الإختصاص كان شائعاً في ذلك العهد أيضاً. ومن نوابغ هذه المدرسة أهرون مؤلف الكناش الطبي الذي نقل إلى السريانية، ومن ثم إلى العربية.

على أن الفلسفة اليونانية لم تبق محصورة في الاسكندرية، بل قطعت مرحلة ثالثة كانت اوسع من المرحلتين السابقتين اللتين قطعتهما اثينا والاسكندرية، وموطن هذه المرحلة الثالثة آسيا الغربية. قام بنقل الفلسفة إلى هذه الاقطار السريان الارثوذكس والاشوريون والفرس واليهود والحرانيون الوثنيون، غير أن السريان اهتموا بها أكثر من سواهم، وشغفوا بها شغفاً لا يوصف، وما ذلك إلا الاحتياجهم إليها في الجدال الديني. وفضلا عن كون السريان كانوا أحذق من سواهم ممن اشتغل بنقل الفلسفة، فقد كان عددهم أكثر، كما أن المدارس التي اسسوها لتعليم هذه الفلسفة فاقت بشهرتها ونتائجها جميع المدارس التي أسسها غيرهم من أقوام آسيا الغربية.

وقد أتيح للسريان أن يتأثروا تأثراً ملموسا بالثقافة اليونانية، و «من المؤكد أن الاساليب اليونانية كانت ذات أثر فيما وصلت إليه اللغة السريانية، فقد حاكى السريان الابنية اليونانية في بعض كتاباتهم وقلدوهم في طريقة استعمال الكلمات، بل أنهم نقلوا إلى لغتهم كثيراً من الكلمات اليونانية، كما أسسوا علم النحو في لغتهم على غرار النحو اليوناني، و اتخذوا من الصوائت اليونانية حركات يستعملونها في كتاباتهم»[٨٢].

وكي لا نندهش من ذلك، فان مؤلف (ثؤولوجيا أرسطو طاليس) كاتب سرياني ينتمي إلى اليعاقبة الإفلاطونيين المحدثين في القرن السادس، وقد استعمل مقتطفات من افلوطين (التاسوعات ٤-٦) في نقد فرفوريوس، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية بين ٨٤٠-٨٥٠ ميلادية [٨٣].

٨٢- د. مراد كامل: المرجع السابق، ص١٥.

٨٣- غوستاف فون غرنباوم: دراسات في الادب العربي. ترجمة عدد من المترجمين، منشورات دار الحياة- بيروت ١٩٥٩، ص١١٣.

وبالرغم من أن تعلم اللغة اليونانية كان مقصورا على أبناء الأغنياء، فإن بعض الأدباء كان يؤلف بها، ثم تُنقل كتبه إلى اللغة السريانية لكي يفهمها سائر الناس. كذلك استعمل السريان في كتاباتهم كثيرا من المصطلحات اليونانية.

وكان هذا التأثير نتيجة طبيعية للعوامل التي مهدت له، وأدت إلى نتائجه، فلقد اختلط اليونان بالسريان اختلاطاً كبيراً. كذلك انتشرت الاديرة والمدارس التي اضطلعت بالنشاط العلمي الذي تناول العلوم السريانية واليونانية على حد سواء[٨٤].

ويمكن حصر العوامل التي ساعدت السريان على نقل الفلسفة ونشرها في بلادهم فيما يأتي: -

أولاً : رقيهم الاجتماعي، وبلوغهم درجة تؤهلهم لقبول هذه المبادئ المنطقية، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يفهموها جيدا، ويضيفوا إليها كتباً، ويدرسوها في المدارس التي أسسوها فيما بعد، وكان أهمها:

١- مدرسة نصيبين الأولى.

٢- مدرسة الرها.

٣- مدرسة سلوقية.

٤- مدرسة قنسرين.

ثانياً : المنافسة الدينية التي نشأت بين فرقهم المذهبية، فكل فريق كان يتخذ الفلسفة وسيلة للدفاع عن نظريته، ودحض نظرية خصمه، وحث الغير على مقتها.

ثالثاً : احتياج كل من السريان الارثوذكس، والسريان النساطرة إلى من

٨٤- الشحات السيد زغلول: السريان والحضارة الإسلامية. الهيئة المصرية العامة للكتاب- الاسكندريه ١٩٧٥ص٧٥.

يتقربون به من الملوك وأولياء الأمور، فكانت الفلسفة من خير الوسائل لتحقيق هذه الأمنية.

وقد اورد ذلك المستشرق الأمريكي د. اولبري أستاذ اللغات السامية في جامعة برستول، في فصل عنوانه (الفكر العربي) أفرد صفحاته الأولى للحديث عن السريان[٨٥].

كانت اللغة السريانية لغة عامة يستعملها الناس من مصر إلى فارس، ومن جزيرة العرب إلى بلاد الاناضول. والاكتشافات الاثرية تؤيد ذلك، فها هي اللغة السريانية مكتوبة على نقود حكام آسيا الصغرى، ونجدها مسطرة على البردي، وعلى الأحجار في مصر. فملوك ماري وفارس وآرام وتدمر وبترا كانوا يحررون رسائلهم بالسريانية الآرامية، وهو الأمر الذي جرى عليه الملوك الساسانيون بعدهم. ومع ان الانباط والتدمريين ينتمون إلى سلالة عربية فان نقوشهم وكتاباتهم جاءت باسرها بالآرامية، وما النبطية والتدمرية سوى لهجتين من لجهات الآرامية.

وقام ما سرجويه (سرجيس) الطبيب البصري اليهودي المذهب، السرياني اللغة، في عهد مروان ، أو في عهد عمر بن عبد العزيز، بترجمة كتاب في الطب لاهرن القس إلى العربية، وكان قد وضعه بالسريانية، ثم انتقلت مدرسة الاسكندرية[٨٦] إلى مدينة انطاكية في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، ويمكن «أن نعزو ذلك إلى أن الاسكندرية فقدت أهميتها بعد أن أتخذ العرب عاصمتهم في الفسطاط، وأصـ الاسكندرية في عزلة تامة عن مركز السيطرة والسلطان، فكان قيام الدولة الأموية في الشام، وعلو نجم الأمويين وعاصمتهم دمشق حافزاً على انتقال مركز العلم والعرفان إلى موطن حكمهم، وأخذ بعض الخلفاء والأمراء الأمويين يشجع رعاياه الضليعين في العلوم الاغريقية على متابعة جهودهم، وقربوا إلى بلاطهم من يمكن

٨٥- د. لاسي اوليري: علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب. ترجمة الدكتور وهيب كامل- القاهرة، ص٩٦.

٨٦- ابن النديم: الفهرست. مطبعة الاستقامة- القاهرة ص٤٢٧.

الاستفادة منهم كالأطباء، حتى أضحت الشام تربة صالحة تنتقل إليها معارف مدرسة الاسكندرية» [٨٧]. وحينما تولى عمر بن عبد العزيز انتقلت الدراسات اليونانية من مصر إلى انطاكية، وحران، ومنها إلى سائر الامصار الإسلامية.

كانت حران تقع في شمال العراق، وقد اتخذت عاصمة لأمارة فدان آرام، كما «كانت مركزاً هاما من مراكز الثقافة الآرامية تردد ذكرها في التوراة مما يشير إلى صلة الآراميين بالعبرانيين» [٨٨]، وتوفرت لها عدة عوامل ساعدتها على أن تخلف انطاكية «إذ كانت مركزا هاما للثقافة اليونانية في المنطقة التي تكلم أهلها اللغة السريانية، كما كانت كذلك مركزا للتبادل والاتصال الثقافي» [٨٩]، وكان في طليعة أولئك الذين جاءوا من حران ثابت بن قرة (٢٢١– ٢٢٨هـ) الذي أوصله محمد بن موسى بن شاكر بالمعتضد وادخله في جملة المنجمين. ويمكن القول أن حران قدمت الكثير من الأساتذة الذين امدّوا الفكر العربي بطاقة هائلة دفعته إلى التقدم.

أما الرها فقد كانت من «أهم مراكز اللغة السريانية» [٩٠]، ولما دخلتها المسيحية في مستهل القرن الثاني اكتسبت هذه اللغة نفوذاً سما بها إلى أن ينقل إليها الكتاب المقدس، وأن يتخذها المسيحيون لغة لهم، وتصبح الوسيلة المعبرة عن الثقافة المسيحية. ويقول فيليب حتي في ذلك «إن الترجمات الرئيسية للتوراة السريانية قد وضعت هناك في أواخر القرن الثاني» [٩١]. ويقول جرجي زيدان إنه في مدرسة الرها «ابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة أرسطو في القرن الخامس الميلادي» [٩٢]. وقد قامت مدرسة الرها على أكتاف أساتذة نصيبين الذين هجروها سنة ٣٦٣م، بعد سقوطها في إيدي الفرس. وكان القديس افرام السرياني المتوفي سنة ٣٧٥ أحد هؤلاء

٨٧– د. إبراهيم العدوى: الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، مكتبة الانجلو المصرية– القاهرة ١٩٥٨، ط٢، ص١٦٤.

٨٨– د. نجيب ميخائيل: تاريخ مصر والشرق الادنى القيم، ج٣: سورية، ص٢٧.

٨٩– ابراهيم العدوى: المرجع نفسه، ص١٦٦.

٩٠– أحمد أمين: فجر الاسلام، مطبعة الاعتماد– القاهرة ١٩٢٨، ص١٥٥.

٩١– د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ص٣٠١.

٩٢– جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢، مطبعة الهلال– القاهرة ١٩١١، ص٣٠.

الأساتذة. وحين حدث الانشقاق النسطوري بعد مجمع افسوس سنة ٤٣١ وقفت مدرسة الرها إلى جانب نسطور، وأخذت بتعاليمه، و من ثم خرجت عن كونها مدرسة فكرية للسريان الارثوذكس.

وإذا كنا قد اكتفينا بايراد مدرسة الرها نموذجاً للمدارس الفكرية السريانية، فإن مدرسة نصيبين الأولى والثانية وغيرها كانت منابر فكرية كبيرة ساعدت على نشر التراث السرياني في الوسط العربي اللاحق.

وكان من الطبيعي أن تتلون الحياة الفكرية في هذه البيئات التي غلب عليها النفوذ السرياني بلون خاص، لذا ليس غريباً أن نجد آثاراً للتعاليم المسيحية في الفكر العربي بخاصة فيما يتلاءم مع ما كانت عليه العقلية العربية. ومع أن عبادة الاصنام لم تستطع أن تملأ وجدان العرب الديني مما جعلهم يعانون حالة من القلق، وكان وجود المسيحية من العوامل التي ابرزت هذه الحالة، وأدت إلى تحويل أفكارهم من الوثنية إلى أفكار أرقى.

ونلمس ذلك من خلال شعر عدي بن زيد، فقد لونت المسيحية شعره، وكان أهله نصارى نزلوا في الجانب الشرقي من الحيرة. وقد نال قسطاً من التعليم هناك أهلّه لأن يكون من أفهم الناس بالفارسية، وأفصحهم بالعربية، وكان أول[٩٣] من كتب بالعربية في ديوان كسرى، وعلى الرغم من اعتناقه المسيحية فإنه حلف برب مكة، كما حلف بالصليب حين سجنه النعمان.

وقيل عن زيد بن ثابت إنه قال: «أمرني رسول الله (ص) أن أتعلم السريانية، قال أني لا آمن يهوداً على كتابي، فما مربي نصف شهر حتى تعلمت وحذقت في فكنت أكتب له (ص) إليهم واقرأ لهم»[٩٤].

وفي المرحلة التمهيدية لظهور الإسلام كان الرواد الأوائل الذين اضطلعوا بعبء الترجمة والنقل سريانا، إذ أن هذا هو الأمر الطبيعي الذي كان لابد أن يحدث، ذلك لان هؤلاء كانوا قد قطعوا في هذه الطريق شوطاً بعيداً، فقد مارسوا الترجمة قبل

٩٣- ابو الفرج الاصفهاني: الاغاني، ج٢، دار الكتب- القاهرة، ص١١١.

٩٤- برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، طبع ١٢٩٢هـ، ص٤٣٥.

ظهور الدولة الأموية بكثير، فمنذ القرن الرابع الميلادي شرع السريان[٩٥] في نقل الكتب اليونانية إلى السريانية في مدرسة الرها، فترجمت في هذا القرن مجموعات من الحكم [٩٦]. وفي القرن الخامس[٩٧] شرح بروبوس كتب أرسطو المنطقية، وكذلك ممن نقلوا علوم اليونان إلى السريانية سرجيس الرأس عيني اليعقوبي المتوفي سنة ٥٢٦م، وهو أول من نقل كتب اليونان إلى السريانية، فيما يرى ابن العبري أن «سرجيس سرياني اللغة يهودي المذهب» كما مر معنا[٩٨]. وقد اعتقد العرب أن أصله سرياني [٩٩].

وإلى مصر وصل نشاط السريان قبل الفتح الإسلامي، حيث بدأ نشاطهم خاصة في الاسكندرية، وفي الاديرة التي اتخذوها لأنفسهم. وبفضلهم عرفت مصر اللغة السريانية، وإن ظلت محصورة في محيط هذه الطائفة. وكان لهم نشاط علمي ملحوظ، حيث كانت الترجمة من اليونانية إلى السريانية بالغة الدقة، فقد اصطبغت النظريات الفلسفية في ذهنهم بصبغة مسيحية، ولاسيما نظريات افلاطون الذي مثلوه في اديرتهم في صورة راهب شرقي *.

وادى هذا الالتحام المباشر بين السريان وعلوم اليونان إلى أن جعل الثقافة اليونانية تعيش في كيان هؤلاء القوم، وتخالط عقولهم، مما جعلهم يتمكنون منها، ويصبحون معلمين لها فيما بعد حين ينقلونها إلى العرب.

٩٥- جويدي: محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب، طبع القاهرة،ص٦٩.

٩٦- ظللت الامثال والحكم، حتى هذه الايام، تحفة المجالس لدى السريان يتناقشون فيها ويسردونها للوقاية من مزالق الدهر، ويصفونها دواء للقلوب التي تهوى الحكمة، وتؤمن بالدراية، انها دخلت ضمن قصائدهم وبين مقالاتهم الدينية والادبية. ومن الجدير بالذكر ان المدارس السريانية قد انقطعت لتعليمها ردحاً من الزمن فسارت على السنة: المعلم والكاهن، وأفراد الشعب عبر الاجيال.

راجع في هذا الشان: الاب يوسف سعيد: الفلوكلور السرياني. مجلة التراث الشعبي، بغداد، تشرين الاول، ١٩٦٣، ص٧.

٩٧- د. مراد كامل: المرجع السابق، ص١٢١-١٣٥.

٩٨- ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص١٩٢.

٩٩- د. مراد كامل: المرجع السابق، ص١٧١.

*- من ذلك قصة يوسف الصديق الواردة في التوراة (سفر التكوين) والقرآن الكريم ، فقد تسابق الكتّاب على وضعها في اطار مسرحي ذي فصول شيقة، وتهافت الغرب على تحليلها ودراستها وتمثيلها في ضوء المصابيح السريانية القديمة.

الثقافة السريانية والفتح العربي

تبتدئ الثقافة السريانية في فترتها الأولى بالفتح العربي، في القرن السابع الميلادي، وتمضي في تطورها حتى تبلغ القمة في أواخر القرن التاسع الميلادي، ثم تأخذ بالانحطاط البطيء، والانحدار إلى الضعف حتى ينتهي في القرن الثالث عشر، أو في عام ١٢٥٨م بسقوط الدولة العباسية [١٠٠].

وقدم العرب الفاتحون من الجزيرة العربية رافعين راية العلم والتسامح، موجهين من قيادة عربية مسلمة نبيلة. ففي الأيام الأولى من الفتح احتضن الخلفاء الراشدون المسيحية بالرفق والعطف، وصانوا حقوق المسيحيين بالعهود والمواثيق اقتداء بالنبي العربي محمد(ص)، واوصوا بهم خيرا. وفي عهد الأمويين ترك الخلفاء المسلمون المدارس قائمة في كل مكان دون أن يمسوها بأذى أكراما للعلم والإنسان، وحفظاً للثقافة، وبرهانا على روح تسامح الدين الإسلامي العربي [١٠١].

وفي عهد ازدهار الحضارة العربية في صدر الإسلام وما بعده بلغت الثقافة السريانية ذورتها، فازدهرت الكنيسة، وتوسعت الابرشيات، واسهم العلماء في هذه الحضارة. ولكن ذلك أخذ يضعف تدريجياً منذ عهد الخليفة المعتصم بالله ٨٣٣-٨٤٢م الذي تولى الخلافة بعد اخيه المأمون. ويمكن الحكم على أن ازدهار العصر العباسي هو ذاته بدأ بالأفول منذ ذلك الوقت حين غزت الشعوبية المنطقة [١٠٢]، إذ أن معظم الدويلات التي نشأت لم تكن ترتكز على اساس قومي في البلاد التي تولتها، لذلك لم تعش طويلاً. وهذه الأحوال السيئة فسحت المجال أمام الغزو الصليبي الأجنبي، حيث تدفقت جنوده على الشرق العربي في القرن الحادي عشر الميلادي كالسيل الجارف، وأقاموا ممالك وامارات تابعة لهم، تركوا أسوأ الأثر في المنطقة، إذ جروا البشرية من مسلمين ومسيحيين في الشرق إلى اقتتال عنيف دام نحو قرنين.

ويمكن اعتبار المحن التي مر بها السريان في العصور اللاحقة لعصر المأمون نتيجة الموجة الشعوبية التي سادت المنطقة، وابعدت الحكام العرب عن الحكم

١٠٠- المطران اسحق ساكا: المرجع السابق، ص٣.

١٠١- المرجع نفسه والصفحة.

١٠٢- صلاح الدين المنجد: الحركات التقدمية في العراق حتى غزو التتار، دار العلم للملايين- بيروت ١٩٦٢، ط٢، ص١٦٢.

الفعلي، فتغلغلت قوميات اخرى ابعدت الاصالة التي عامل بها العرب المسلمون اخوانهم السريان.

وإذا رجعنا إلى العهود المتلاحقة من مغول ومماليك وعثمانيين نرى أن الساحة الثقافية العربية، وخاصة في الشرق الأوسط، قد خلت من الإبداع، ومن ثم فان السريان أصابهم ما أصاب العرب من الكوارث، وليس لدينا إلا اخبار متناثرة في زوايا هذا التاريخ المشؤوم الأسود، لقلة المراجع الثابتة، وندرة الوثائق الكافية.

ويمكن تحليل ذلك أنه منذ نهاية القرن الرابع الهجري، بدأت عوامل الضعف والانحلال تدب في كيان العرب، وتوالت عليهم المحن والنكبات، فتعرضوا للموجات التركية المتوالية التي لم تعر للفكر والعلم أي اهتمام يذكر، ثم جاءتهم الحروب الصليبية من الغرب، وبقيت بلاد الشام نحو قرنين من الزمان تحت حكم الأوروبيين. وفي القرن السابع للهجرة اكتسحت موجات المغول، بقيادة هولاكو، العالم العربي، واحتلت بغداد عام ١٢٥٨م، وعاثت فساداً في البلاد، وأحرقت ما في دور العلم والأدب من كتب ومخطوطات ثمينة. وبعد ذلك بقرنين تقريباً، زحف تيمورلنك على دمشق فمثل الدور الذي قام به هولاكو في بغداد.

وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي حكم الاتراك العثمانيون البلاد العربية. وظلت طوال القرون الثلاثة الأولى من حكمهم في عزلة تامة عن العالم الخارجي، بينما شهدت أوروبا نهضة علمية وأدبية رافقتها اكتشافات جغرافية، وحركة استعمارية ضمنت لها السيطرة على العالم الجديد، وعلى العديد من أقطار العالم القديم في أفريقيا وآسيا، واجتاحتها في القرن الثامن عشر ثورة صناعية، وأخرى سياسية واجتماعية قلبت أوضاعها رأساً على عقب، وأعطتها مركز القيادة للعالم بأسره، وبينما كانت هذه التطورات تجري في أوروبا كان العرب منغلقين على أنفسهم في ظل الحكم العثماني، فلا اختراع، ولا تقدم في العلوم والصناعة، بل جمود فكري، وترديد لما ورد في كتب الفقه والنحو والصرف.

و«اقتصرت العلوم عند العرب في هذه الحقبة الزمنية على المعلومات القديمة في أصول الدين، والفقه، والنحو، والصرف، وبعض الحساب البسيط، والفلك القديم لمعرفة أوقات الصلاة. واكتفى العلماء العرب باجترار المعلومات القديمة دون الاقدام على أي تجديد» (١٠٣).

ولا يمكن القول سوى أن طبيعة الثقافة في هذه المرحلة كانت مرحلة تجميع وتعليق واختصار أكثر من توليد وإبداع، أو العمل على حفظ التراث السرياني والاجتهاد في بثه ونشره، إذ كان الآباء يجدون فيه الكفاية، فلم يكن يوجد ابتكار شخصي، ولا إنتاج خلاّق، ولا تفوّق حضاري، فكان كل الكتاب في هذه المرحلة من المقتبسين والملخصين. وكما يقول د. فيليب حتي، فان العصر العثماني لم ينجب شاعراً سورياً واحداً، ولا فيلسوفاً، ولا فناناً، ولا عالماً، ولا منشئاً من الطبقة الأولى(١٠٤).

أما إذا اعدنا إلى صدر الإسلام فاننا نرى أن السريان كان لهم في التاريخ قوة تحريك وإنفتاح في مكة عشية ظهور الإسلام، فكل الرسائل التي كانت تأتي من الخارج إلى العرب بلغة اجنبية لا يقرأها إلا السريان، فهم يعرفون اللغات، أولا السريانية واليونانية، ثم في طور آخر لغات أخرى، و عندهم حس عالمي ناتج عن انتمائهم إلى كنيسة بطبيعتها عالمية جعلت عندهم آفاقاً غير محدودة، ومن جهة أخرى جعلت عندهم حس بالإنسان.

والحضارة العربية الإسلامية في سورية ومصر كانت كناية عن استيعاب العلوم، والفنون، والصناعات، والموسيقى، ومفاهيم الإدارة. واسهم السريان في إعطاء الحضارة العربية قدرتها على الاستيعاب من حضارات، ومدنيات الاغريق، وفارس، والروم، والاقباط، وقدرتها على الوصول إلى كل الآفاق التي امتدت إليها. ومن هنا فان هذه الخدمة الإنسانية الثقافية كانت أساس علاقة إسلامية مسيحية متينة.

١٠٣– علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الاهلية للنشر والتوزيع– بيروت ١٩٧٥، ص١١و١٢.

١٠٤– فيليب حتي: المرجع السابق، ص٣٢١ .

هناك نوع من التآخي بين المسيحيين والمسلمين، نوع من الجاذبية، لذلك جاء العطاء وكان التلقي الجميل للعطاء والانطلاق به. وقد يفيد ان نذكر قول اخوان الصفا «كن عربي الدين وعيسوي الاخلاق»(١٠٥).

وإذا كان ظاهر الأمر يشير إلى أن عنصر الأصالة العربية هو الذي غلب على العرب في اهتمامهم بكل ما يتصل بلغتهم حفاظا عليها من التغيير، وعونا على استجلاء معاني القرآن الكريم الذي نزل بها، إلا أنه في الأمكان تبني الآثار الأجنبية فيها، فها نحن أولاً نرى أن هذا النشاط الذي حفلت به البيئة الإسلامية، والذي قام ليصون اللغة العربية من عجمة الذين بدأوا يتكلمون بها من غير أهلها، وليفيد منه العرب أنفسهم لا نهم خالطوا الاعاجم فتغير لسانهم، وليخدم النص القرآني حتى لا يزل أحد في فهمه، ما هو إلا صورة مما فعل السريان قبل ذلك في لغتهم، فلقد ظلوا يتقيدون دون الحركات برهة طويلة من الزمان، ثم تنصروا، ونقلوا إلى لغتهم الكتب المقدسة، وبخاصة الاناجيل، وارادوا ضبط كل كلمة منها عند قراءتها في الكنائس تحسبا من الخطأ، فإن الخطأ في تلاوة مثل هذه الكتب المحترمة فاحش، وهو ما يوهم بالكفر والزندقة لدى قارئها. ولما لم يكن للسريان بد من الحركات، ولم يكن لهم سبيل إلى تغيير الأحرف المعهودة المستعملة، أو إلى زيادة أحرف، فقد اضطروا إلى اختراع علامات صغيرة لا تتأثر بها الأحرف، ولا يغير شكلها، فاقتصروا على رسم نقطة، أو سطيرة صغيرة فوق الحرف أو تحته، أو في وسطه، وبقيت الأحرف كما هي، فلم يغيروا أحرفاً، بل زادوا نقطاً أو سطيرات، ولقد حذا اليونان حذوهم في ذلك، فلما جاء العرب إنتفعوا بذلك وأتقنوه وأصلحوه(١٠٦).

وإذا كان المسلمون قد تأثروا بالسريان فيما اتخذوه لضبط لغتهم واعرابها، فإن السريان كانوا وراء النهج الذي أتخذه النجاة لكتبهم، ذلك أنهم كانوا يشتغلون بالفلسفة والعلوم اليونانية في مدرسة جنديسابور، ولقد أدى ذلك إلى أن أصبحت المعارف اليونانية منتشرة بين الفرس شائعة بينهم.

١٠٥– من مقابلة مع المطران جورج خضر، مجلة الجدار– بيروت، العدد الاول– السنة الاولى ١٩٩٤.

١٠٦– جويدي: المرجع السابق، ص٨٣و٨٤.

الثقافة السريانية والعصر الأموي

كان لاتساع دولة الإسلام، وحاجة العرب إلى ما عند الأمم في العلوم أقوى البواعث على طلب الفلسفة والعلوم، ونقل كتب العلم إلى اللغة العربية. و بما أن الطابع العربي هو الذي ميز الدولة الإسلامية في عهد الأمويين ٤١-١٣٢ هـ، لهذا بقيت الدولة الأموية عربية المظهر، كما لم يبعد الخلفاء الأمويون عن هذا الطابع إلا في المجالات التي دفعتهم الظروف إليها دفعاً. لقد كانوا بصدد إرساء أسس جديدة لدولة ناشئة على نهج لم يكن للعرب به عهد من قبل، وكان بودهم أن يستكملوا لها كل مقوماتها، ولم يكن بد اذن من أن تواجههم مشكلات نتيجة لما يمارسون من نشاط جديد. كل ذلك جعلهم يلجأون إلى ذوي الخبرة فيما جد من أمور، فهم لم يناقضوا أنفسهم حين استمدوا العون من كل قادر عليه من أهل الثقافات اليونانية والسريانية، مما أتاح للعقلية العربية أن تلقح بلقاح علمي جديد حمله إليها السريان على وجه التحديد.

كانت القبائل قبل الإسلام تتخذ من الشعراء أعواناً على حفظ كيانها، ولكن الظروف قد تغيرت في العصر الأموي، وأصبحت الدولة في حاجة إلى صنف آخر من الناس يوطد لها اركانها. كذلك إذا كان على ثقافة كل عصر أن تلبي مطالبه، وتشبع حاجاته، فان ثقافة العصر الأموي قد قامت بدورها. حقيقة أنهم لم يفرغوا للشؤون العلمية بقدر ما فرغوا للأمور السياسية، إلا أننا نصادف من بينهم من لم يدخر وسعا في سبيل تشجيع الحركة الأدبية، والتقدم العلمي. وإذا لم يقدر لنتائج جهودهم أن تظهر بجلاء، فإن هذا يرجع لعدم استقرار الأمور طوال أيامهم، وقرب العهد بالعصر الجاهلي؛ وإذا كان المتفق عليه «إن التقدم في المدنية يخطو بالتدرج خطواته، فإنه قد خطا الخطوة الأولى منها الأمويون، وخطا الخطوات الأخرى العباسيون»[١٠٧].

١٠٧- أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الادب في العالم ج١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٤٣، ص٣٧٦.

وعلى ذلك يمكن القول إن الازدهار الذي أصاب الحياة العلمية في العصر العباسي قد وضعت أسسه على أيام الأمويين، ذلك لإن المظاهر الحضارية دائما في حاجة إلى فسحة من الوقت لكي تعطي ثمارها.

وكان السريان هم القنطرة التي عبرت عليها هذه العلوم لتصل إلى العرب. ولقد جرى هذا التزاوج في البيئات التي تعبق بالروح الهلينية بدافع من مساواة الإسلام بين معتنقيه، إذ لم يكن ثمة تعصب أو انحياز، وانما كانت المساواة وكان التسامح هما الأساس الذي بني عليه الإسلام معاملته لأهل الأديان السماوية الأخرى. وقد كان لذلك أثره في استثارة هممهم، وتحريك رغبتهم في المشاركة في النشاطات المختلفة التي تدور حولهم.

ولقد أخذ معاوية وخلفاؤه من بعده في دمشق بالعادات اليونانية، فحول الخلفاء الأمويون جمهورية المدينة الدينية العربية إلى امبراطورية حقيقية سورية، فضربوا الدنانير الذهبية على نسق الدراهم البيزنطية، وجعلوا الخلافة وراثية بعد أن كانت انتخابية، واستخدموا عمالاً كثيرين من اليونان والسريان، واسندوا إلى المسيحيين مركز الوزير الأول(١٠٨).

وكان خالد بن يزيد الشخصية الإسلامية الأولى التي عملت بمشورة علماء السريان، فأقدم على الاشتغال بالكيمياء، حتى سمي حكيم آل مروان. وفي عداد الأسباب التي دفعت هذا الأمير إلى الاشتغال بالكيمياء، والعناية باخراج كتب القدماء فيها، نستطيع ان نذكر إلى جانب محبته للعلوم أمر ابعاده عن الخلافة، فلقد كان راغبا فيها بعد وفاة أخيه معاوية الثاني؛ ولكن مروان بن الحكم غلبه على ذلك، فراح يحاول اكتساب العلا بالعلم(١٠٩).

ويمكن القول إن العلوم الطبية التي احتكت بها العقلية العربية قد خرجت من أيدي أصحابها، ونعني بهم اليونان، وتلقفها الدارسون والشارحون الذين يعرفون اليونانية والسريانية، وشارك الأطباء السريان في هذه الدراسة بنصيب وافر، وكان

١٠٨- ماكس فانتاجو: المعجزة العربية، ترجمة رمضان لاوند، دار الكشاف - بيروت ١٩٥٤، ص١٢١.

١٠٩- جرجي زيدان: المرجع السابق، ص٢٣٢.

لهم دورهم في النقل والترجمة. واشتهر منهم في العصر الأموي ابن أثال. قال عنه ابن أبي أصيبعة: «من الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب. ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه، وأحسن إليه، وكان كثير الافتقاد له، والاعتقاد فيه، والمحادثة معه ليلا ونهاراً»[١١٠]. كذلك كان من أطباء بني أمية أبو الحكم الدمشقي، وهو طبيب من أهل دمشق، سيره معاوية بن أبي سفيان مع ولده يزيد طبيباً إلى مكة.

الثقافة السريانية والعصر العباسي

إذا كان العصر الأموي لفت الانتباه إلى دور السريان العلمي والحضاري في تلك الحقبة، فان العصر العباسي إلى حكم المتوكل قد بين أكثر فأكثر مدى الدور الذي لعبه رجال الفكر والعلم المسيحيين، وعلى رأسهم السريان في تمرير الفكر اليوناني عبر سريانيتهم إلى العربية، ولم يكن لهؤلاء أن ينبغوا فيفيدوا ويستفيدوا لولا مناخ الحرية الذي يتمتعون به، واحترام الحكام لهم.

لقد كان للمسيحيين الناطقين بالسريانية دور كبير في نهضة العرب الفكرية والعلمية في بغداد زمن العباسيين، تلك النهضة التي غدت ولا تزال مفخرة العصر العباسي القديم، فقد كان العالم العربي ما بين ٧٥٠-٨٥٠م مسرحاً لحركة من أبرز الحركات واخطرها في تاريخ الفكر. ولقد تميزت هذه الحركة بالنقل إلى العربية عن الفارسية واليونانية والسريانية، إذ أن العربي كان يحمل معه في الصحراء صفاءها وشفافيتها وقيمها ومثلها، ورافقته رغبة ملحة في الاطلاع، وفهم شديد للعلم، وشيء كثير من المواهب الفكرية الكافية. وقد سنح للعربي في الهلال الخصيب أن يصبح الوريث الفكري لعلوم اليونان، ومعالم حضارتهم. فما أن مضت على تأسيس مدينة بغداد سنة ٧٦٢م عقود قليلة حتى وجد الجمهور الناطق بالعربية في متناوله أهم مؤلفات ارسطو، وشروح افلوطين، وأعظم مؤلفات ابقراط وجالينوس الطبية، وأبرز كتب اقليدس الرياضية، وأروع آثار بطليموس الجغرافية[١١١].

١١٠- إبن أبي أصيبعة: عيون الابناء في طبقات الإطباء ج١، المطبعة الوهبية- القاهرة، ص١٧٠.

١١١- موسى يونان غزال: حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، مطبعة مارافرام-العطشانة- لبنان١٩٧٢، ص٢٣.

ولنا أن نقول هنا أن حركة الترجمة والنقل غدت قوية جدا في الأيام الأخيرة من العهد الأموي، وبخاصة في غضون القرن الاول من العصر العباسي، مما ادخل على النشاط الأدبي والفكري في اللغة العربية مواداً جديدةً، وروحاً متوقدة في نطاق البحث العلمي، والتفكير الفلسفي، وانتظمت مراكز للترجمة اجتذبت إليها اضلع العارفين باللغات الأجنبية، وأغدقت عليها الأموال بوفرة، وبسطت عليها اجنحة الحماية من المتزمتين، وانتقاداتهم اللاذعة، وأمر يحيى بن خالد بنقل المؤلفات العلمية اليونانية وتفسيرها، وانشأ خزانة كتب مهمة كانت من بعده النواة لبيت الحكمة الشهير الذي انشأه المأمون في بغداد، وجعل منه مركزاً للدراسات النظرية والعلمية. وقد نقل العرب من علوم الأمم الأخرى في قرن ونيفٍ مالم يستطع الرومان نقله في عدة قرون، وذلك شأن العرب في أكثر أسباب تمدنهم العجيب، وجنى المسلمون العرب ما ألفوه من هذه العلوم، بعد إختبارهم لها، وما اضافوه من عندهم اليها، خلال تمدنهم. ومعظم مؤلفاتهم ومنقولاتهم ضاعت، ولم يبق إلا جزء منها، وعلى هذا الجزء كان معول الأوروبيين في نهضتهم الأخيرة، حيث كرس العلماء السريان المترجمون والنقلة من مدنيين ولا هوتيين، حياتهم لخدمة العرب، والفكر الشرقي.

وبلغت الحركة الدينية في أواخر العهد الأموي شأوا بعيداً مما ثبت سلطة الإسلام على جميع الامصار التي دخلها العرب عنوة أو صلحاً، فعمت اللغة العربية أهل تلك البلاد وغلبت على نطقهم. وفي العصر العباسي كان الخلفاء العباسيون يميلون إلى العلوم الفلسفية، وهذا ما جعل الناس ينحون منحاهم. وفي هذا الصدد يقول دي بو: «إن الذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين يكادون جميعاً يكونون من السريان، ونقلوا ما نقلوه إما عن الترجمات السريانية القديمة، أو عن ترجمات أصلحوها، أو قاموا بها من جديد»(١١٢).

أما جويدي فيقول: «ومن الجيل الثاني للهجرة إلى الرابع نقلت كتب اليونان إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية لإن السريان كانوا يتعلمون اليونانية والعربية في مدارسهم، ولقد كان للسريان اليد الطولى في هذا النقل»(١١٣).

١١٢- ت.ج.دي بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ص٢٨.

١١٣- جويدي: المرجع السابق، ص١٠.

وينقسم تاريخ حركة النقل والترجمة من اليونانية التي بدأت في عهد المنصور إلى ثلاثة أدوار:

الدور الأول: من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد (١٢٦-١٩٣هـ)، وممن قاموا بالترجمة فيه يحيى بن البطريق، وسرجيس بن جبرائيل، ويوحنا بن ماسويه.

الدور الثاني: من ولاية المأمون سنة ١٩٨هـ إلى سنة ٣٠٠هـ، وممن اشتهروا فيه: قسطابن لوقا البعلبكي، وحنين بن اسحق، وابنه اسحق بن حنين، وثابت بن قرة، وحبيش بن المحسن.

الدور الثالث: من سنة ٣٠٠هـ إلى منتصف القرن الرابع، ومن مترجميه متى بن يونس، وسنان بن ثابت بن قرة، ويحيى بن عدي، وأبو علي بن زرعة.

ولا يعني هذا التقسيم وجود حدود فاصلة تضع البداية والنهاية لكل دور، فالظواهر الفنية، والحركات الأدبية متداخلة متشابكة، وفضلا عن ذلك فاننا نجد الكثيرين ممن قاموا بالترجمة والنقل قد عاصروا أكثر من دور من تلك الادوار. فيوحنا بن ماسويه [114]، مثلا، قد خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

إذا كانت تسمية السريان هي الغالبة على العلماء المسيحيين الذين اسهموا في النهضة الثقافية العربية من سريان ونسطوريين وغيرهم، فان هذا التعدد لا يمنع أن ترجع هذه المذاهب والمعتقدات والفرق باصولها إلى أصل واحد وجنس واحد ولغة واحدة ودم واحد وفكر واحد، أسهم في نقل الحضارة الإنسانية في مختلف المجالات، وبخاصة في العصر العباسي، إذ نهضت هذه الحركة المباركة على اكتافهم وبهمتهم، لان هناك حقيقة تاريخية يجمع عليها جميع أصحاب الاختصاص، من شرقيين وغربيين، هي أن فئات الطوائف المذكورة تنتمي إلى أرومة سريانية واحدة، بدليل موطنها الجغرافي، وتراثها الحضاري، وثقافتها ولغتها السريانية.

١١٤- ابن ابي أصيبعة: المرجع السابق، ص١٧٥.

وإبدع السريان في نقل الفلسفة اليونانية، وذلك لإنها كانت عندهم، في طورها الأول، واسطة لفهم اللاهوتيين اليونانيين الذين نبغوا في القرون الأولى للمسيحية. ولم تتخذها السريان لنفسها إلا في غضون القرن السابع، إذ ترجمت معظم كتب الفلسفة اليونانية إلى اللغة السريانية، فكثر المشتغلون بالفلسفة في هذه الحقبة، وكان السريان يتخذون الفلسفة، في اوج مجدها، لنفسها، ويتدارسونها ويؤلفون فيها، إلا أنها كانت وما زالت جادة للفكرة المسيحية، وسلاحاً ضد المبتدعين. أما التراث الفلسفي في هذه الحقبة، أي منذ مطلع القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع، فقد كان تراثاً نفيساً وغزيرا سما على كل تراث سواه. وكان المشتغلون به من تلاميذ قنسرين واديرة تلعدا (تبعد خمسة كيلو مترات عن قلعة أو كنيسة سمعان قبل حلب)، واوسيبونا. ومنذ ذلك التاريخ نرى أن اللغة السريانية اكتسبت عناصر جديدة من اللغات التي درس السريان علومها وآدابها، فأخذت من اللغة اليونانية بعض الاصطلاحات.

ولقد نقل السريان الفلسفة اليونانية إلى لغتهم الآرامية، ثم العربية، ومن هنا استقى العرب أولى معلوماتهم عن ارسطو من المصادر السريانية، وكانت هذه المعلومات مقتصرة على مؤلفاتهم في المنطق. و هذه المؤلفات مترجمة إلى السريانية واعيدت ترجمتها فيما بعد، ووضعت فيها شروح كثيرة كانت في متناول اليد. وفي القرن العاشر حتى اواسط الحادي عشر نقل العلماء الفلاسفة السريان البغداديون والتكريتيون كتبا فلسفية وطبية تعد إلى اليوم مراجع أساسية للمشتغل بالفلسفة الشرقية. ونظراً لخطورتها وصعوبتها، فقد أعارها السريان الأهمية والعناية، وجعلوا منها علما قائماً بذاته، مستقلا عن فروع الثقافة الأخرى، بعد أن ادخلت إليها أساليب وطرق مبتكرة تضمن لها الأمانة والصحة، وتذلل ما يعترضها من صعوبات ومشقات.

وفي تحقيق قام به اكاديميان لبنانيان تبين «أن الترجمات المختلفة لأرسطو التي قام بها السريان في غاية الدقة والوضوح عدا مواضع قليلة لم يفهم الناقل فيها قصد المؤلف، فترجمه ترجمة حرفية جاءت في العربية خاطئة أو غامضة. وليس هذا الأمر بغريب لإن مترجمي أرسطو المعاصرين لم يتفقوا على فهم بعض نصوصه الغامضة، رغم أن الدراسات الارسطوطاليسية – نسبة إلى أرسطو – قد أصبحت اليوم عديدة، والوسائل التي بين أيدينا لم تكن متوافرة لنقلة القرن الثالث الهجري»(١١٥).

وقد قال المستشرق الإنكليزي وليم رايت: «كانت الترجمات السريانية في كثير من الحالات حرفية لتكون أشد سبكا في اصطلاح لغتهم الخاصة، وهذا ما جعل لها قيمة أكبر، فتستطيع أن تعتمد في تركيب النصوص الأصلية. غير أن المترجمين المتأخرين تصرفوا بالترجمة تصرفا عظيماً، من ذلك ابتكارهم لطرق وأساليب جديدة تصون الناقل من الخطأ، وتساعده على تأدية المعنى الصحيح في اللفظ الفصيح».

وكان مستوى التراجمة العلمي عالياً، فكانوا ضليعين في اللغات اليونانية والسريانية والعربية، فادركوا أعماقها، وسبروا غورها. فصلة السريان باللغة اليونانية تمتد لعشرة قرون، وتعميمهم أياها في معاهدهم العلمية دليل على اتقانهم لها.

دور العلماء السريان في الحضارة العربية

لم تبدأ الحركة الحقيقية للنقل قبل عهد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور، الذي أسس بغداد، وجعل منها وارثة لأثينا والاسكندرية. وقد تابع الخلفاء العباسيون عمل المنصور حتى جاء المأمون، وانشأ مدرسة للترجمة سنة ٢١٧هـ-٨٣٢م، عرفت باسم بيت الحكمة، وكان هذا البيت علامة بارزة في تاريخ العلم والثقافة عند العرب، وكان حنين بن اسحق من (أعلام) بيت الحكمة، وواحداً من

١١٥- حنا الفاخوري وخليل الحر: قيمة الترجمات العربية واثرها في الفكر العربي، القسم الثاني، مجلة المسرة- حريصا لبنان، العدد ٤٣٢، اذار ١٩٥٨، ص٢٠٣.

أبرز بناة النهضة العلمية العربية الإسلامية التي شعت أنوارها على العالم ردحاً طويلاً من الزمن، وجمع في هذا المكان النقلة تحت رئاسة الطبيب النصراني يوحنا بن ماسويه. وقد أوفد المرسلين إلى الهند وفارس والقسطنطينيه، وغيرها للبحث عن الكتب القيّمة وجمعها. ويقول دي بو: «والذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين يكادون جميعاً يكونون من السريان»[١١٦]. والجدير بالذكر أن حنين بن اسحق الذي سبق ذكره، ويكتب اسمه باللاتينية Johnnit كان قبل أن يبلغ السابعة عشرة من عمره، من انشط المترجمين في هذه المدرسة، بل هو شيخ المترجمين على الاطلاق، وقد ولد حنين في الحيرة لاسرة عربية نصرانية سنة ٨١٠م، وكان والده اسحق صيدلانيا، ولا يذكر التاريخ اسم أمه، ولا يعلم أن كان له أخوة أو أخوات ماعد أخته أم حبيش تلميذه[١١٧]، وعلى الرغم من وضوح الانتماء الطبقي لحنين فان (دي لا سي أو ليري) يشير إلى أنه لم يكن من الطبقة الحاكمة التي كانت تتكلم العربية.

تعلم حنين السريانية لغته الأم، ونزح إلى البصرة التي تأسست فيها من قبل المدرسة النحوية المشهورة، واستطاع أن يتزود بزاد من اللغة العربية. وذهب إلى بغداد مقر الحكومة والخلفاء، وملتقى العلماء والباحثين. وهناك اتجه إلى تعلم الطب، وتتلمذ، بوجه خاص، على طبيب كبير من أطباء جنديسابور، هو يوحنا بن ماسويه، طبيب الخلفاء والأمراء. وكان بينهما أخذ ورد، لإن التلميذ في ذكائه كان يوجه إلى أستاذه أسئلة محرجة احيانا، الأمر الذي دفع الأستاذ إلى أن يؤنبه، ويعيب عليه جهله اليونانية، ويشهر بأهل الحيرة الذين يحسنون التجارة، ولم يقبل بهم الطب ودراسته. وهذا ما دفع حنين إلى أن يسافر إلى القسطنطينية ليمضي فيها عامين ونيف، باحثا في مخطوطاتها العلمية والفلسفية النفيسة، ومجدداً تعلمه لليونانية بين أهلها: ويخيل إلينا أنه أصبح بعد هذا من أعرف المترجمين بها، وأعمقهم درسا لأدبها وقواعد نموها[١١٨].

١١٦- ت.ج. دي بور: المرجع السابق، ص٢٨.
١١٧- ابن ابي اصيبعة، المرجع السابق، ص١٨٤.
١١٨- د. ابراهيم مدكور: حنين بن اسحق المترجم، مجلة المسرة- حريصا- لبنان، العدد ٦٠٩، حزيران ١٩٧٤، ص٥٤٤.

ويمكن القول إنّ حنين بن اسحق احدث آثاراً مهمة في حياته الفكرية تتلخص بمايأتي:

١- عظم الفائدة التي قدمها، بنقله نتاج العقل اليوناني، إلى العربية، سواء بترجمتها عن السريانية أو عن اليونانية، الأمر الذي اغنى الفكر العربي، فقد ترجم ما يزيد عن ٢٠٠ كتاب من اليونانية إلي العربية، منها ٩٥ تخص جالينوس.

٢- إن حنينا في عملية الترجمة التي قام بها جوبه بالعديد من الكلمات اليونانية التي لم يعرف لها نظيراً في السريانية أو العربية، من مصطلحات طبية وفلسفية، واسماء نباتات وحيوان وعلم هيئة، وكان عليه أن يوجد لتلك المصطلحات الفاظاً عربية تقابلها إن استطاع ذلك، أو يصقل الكلمات الأجنبية صقلاً عربياً إن لم يستطع، وقد نجح حنين في ذلك.

٣- كانت ترجمة حنين وافية دقيقة، في حين كانت ترجمات من سبقوه ركيكة جافلة بالاخطاء والاغلاط، ومما يزوى أن ابن ما سويه، قرأ قطعة من ترجمة حنين فكثر تعجبه وقال: «ترى أو حي الله في دهرنا إلى احد؟ فقيل له كيف، فقال: ليس هذا إلا إخراج مؤيد بروح القدس».

٤- كوّن حنين مدرسة للترجمة لها طريقتها الخاصة التي لم تكن معروفة من قبل، واستطاعت هذه المدرسة أن تقوم بالترجمة على وضوح المعنى، وجودة الأسلوب، وإن اضطرت إلى استعمال المصطلحات العلمية بالفاظه فانها تتبعها بشرح معناها، إلى أن تؤلف الكلمة، في العربية ويتحد مدلولها[١١٩].

وخلاصة القول إن المؤرخين، من عرب ومستشرقين، لم يجمعوا على امتداح رجل ووسمه بالعبقرية والنبوغ، وسمو الخلق، والجد في العمل مثلما أجمعوا على امتداح حنين. وقد عللوا أقوالهم بما أثر عنه، وعرف به من وفرة المترجمات والمؤلفات، وتنوع موضوعاتها، وطريقته في الترجمة، ومنهجه في العمل، وفصاحة

١١٩- محمد علي الزركان: حنين بن اسحق شيخ المترجمين العرب. مجلة العربي- الكويت. العدد ٢٩٢ اذار ١٩٨٣، ص١٢٣.

لغته العربية، وابتكاره المقابلات العربية للمصطلحات العلمية، وأمانته في صناعة الطب، وجمعه بين النظري والعملي. ولقد قال أحدهم بحق «كان الطب منعدما فأوجده ابقراط، وكان ميتا فأحياه جالينوس، وكان أعمى فبصره حنين بن اسحق، وكان متفرقا فجمعه محمد بن زكريا الرازي، وكان ناقصاً فأكمله الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا».

وسبق حنين هذا نقلة عديدون، منهم: الحجاج بن مطر، ويوحنا البطريق المتوفي عام ٨١٥م، وعبد الملك بن ناعمة الحمصي المتوفي سنة ٨٣٥م، الذي نقل ما سمي خطأ بكتاب الربوبية لأرسطو، وهو شرح مأخوذ عن (تاسوعات) أفلوطين، كما نبغ في مدرسته عدد أكبر، منهم: قسطا بن لوقا البعلبكي (٨٢٠-٩٠٠م)، وعلى رأسهم حبيش ابن اخت حنين بن اسحق، وأحد تلاميذه، ومنه تعلم صناعة الطب، ولحق حنين بن اسحق ابنه اسحق، وكان يلحق بابيه في صحة النقل من اللغة اليونانية والسريانية إلى العربية، وقد خلفه على الترجمة، وكان بارعاً ومقدما في العلوم الرياضية، كما تميز في صناعة الطب، وظلت حركة النقل ناشطة حتى القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي - وقد اشتهر من بين النقلة أبو بشر متى بن يونس.

ومن اليعاقبة كان يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٣م)، الذي سمي بالمنطقي لما كان له من شهرة واسعة في هذا العلم، و قد أخذه عنه الفارابي، وكتب الكثير من الكتب، وله تصانيف وتفاسير ونقول كثيرة منها كتاب (بويطيقا) لأرسطو طاليس.

كما كان أبو علي عيسى بن اسحق بن زرعة (٩٤٢-١٠٠٨م) أحد نوابغ السريان ممن خدموا الفلسفة العربية في زمانه، ولقب بالمنطقي لاشتهاره به، ومما كتبه وترجمه:

١- اختصار كتاب أرسطو طاليس في المعمور من الأرض.

٢- كتاب أغراض كتب أرسطوطاليس.

٣- مقالة في العقل.

٤- رسالة في استنارة الكواكب.

٥- رسالة في بقاء النفس.

ومما نقله عن السريانية:

١- مقالة في النميمة.

٢- كتاب الحيوان لأرسطو طاليس.

٣- كتاب منافع أعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوي.

٤- كتاب خمس مقالات من كتاب نيقولاؤس في فلسفة أرسطو طاليس.

ويعد أبو الفرج المعروف باسم غريغوريوس (ابن العبري) أبا التراث السرياني، وكان يحاضر في اقليدس في مرصد الرها عام ١٢٦٨م، ولسوء الحظ انتهى التراث السرياني حيث بدأ، لأن أبا الفرج كان آخر ذوي الشأن من كتاب السريانية، وبعد موته حلت اللغة العربية محل السريانية بالتدريج. وقد كتب بالسريانية سنة ١٢٧٩م مختصر كتاب المجسطي لبطليموس، وربما كان ذلك المختصر يحتوي دروسه التي القاها في الرها بين سنة ١٢٧٢ وسنة ١٢٧٩م[١٢٠].

ومن الفلاسفة السريان حبيب أبو رائطة التكريتي الذي ولد في تكريت ٨٢٨م، وكذلك موسى بن كينا المعروف بابن صخرة.

واشتهر آل بختيشوع في الطب، وخدموا بني العباس نحو ثلاثة قرون، كانوا فيها واسطة قلادة العلماء في الطب والفلسفة. كان منهم جورجيس بن جبرائيل ٧٧٠م، وبختيشوع بن جورجيس ٨٩٧م، وجبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس ٨٢٨م، وبختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع ٨٧٠م.

أما يوحنا بن ماسويه فتوفي ٨٥٧م- كما أسلفنا - فقد ترجم كتباً طبية، وجعله الخليفة المأمون، رئيسا لبيت الحكمة.

١٢٠-George Saton: Science and Modern Givlization, Vol.2, Library Books, New York 1956, P.55.

وهناك المئات من الأسماء الأخرى التي احتلت مكانها إن على صعيد الترجمة، أو الطب أو الفلسفة، أو في الدراسات الدينية، يعرفها من تابع التاريخ العربي.

إن الأثر الذي تركه السريان على الإسلام كبير، بخاصة في ميدان نقل الفلسفة اليونانية، وكان من أولى النتائج البارزة لاحتكاك المسلمين بعلوم الاجانب خروجهم عن فطرتهم الأولى وإيمانهم الساذج، فوضع الكثيرون منهم دينهم موضع الشك والنقد في ضوء معطيات العقل، حتى أن هذا العقل احتل المكانة الأولى في المناقشات، وأصبح عند بعض الفرق الحكم الذي لا ينازع، على هديه تسير، وبنوره تهتدي، واحتلاله هذا المركز الممتاز أدى ببعضهم إلى الالحاد والزندقة وأنكار النبوة والمعجزات التي كان الرعيل الأول من المسلمين يؤمن بها بدون أن يحاول الكشف عن سرها وأسبابها[١٢١].

وفي الوقت الذي ساد فيه الظلام الثقافة العربية منذ القرن السادس عشر حيث حلت الانتكاسات باللغة العربية، والانجاز العربي الحضاري، كان المطران جرمانوس فرحات في حلب من أهم من حافظ على اللغة العربية وقام بتعليمها، وكانت الكنيسة والأديرة والرهبانيات والمدارس التابعة لها في لبنان المصدر الأهم الذي حفظ جزءاً كبيراً من التراث، وحماه وقدمه للاجيال اللاحقة، وفي ذلك الوقت، وعندما لم يكن يوجد من يكتب أدباً إنسانياً على شيء من العمق، جاء النتاج المسيحي في القرن التاسع عشر ليخلق نهضة أدبية وفكرية عربية، إضافة إلى اللغة العربية الفصحى التي انتشرت من المحيط إلى الخليج، كان من أهم أسسها ما قدمه أدباء المهجر ومن جاء بعدهم، وما احتوته هذه التقدمات من اسلوب وعقلية جديدين ملئيثن بالحماسة، ومتأثرين ببساطة الكتاب المقدس.

اخيراً يمكن القول إن النقلة السريان قدموا إلى الثقافة الإسلامية خدمات جلى بنشر الثقافة اليونانية بين العرب وتبسيطها، فشقوا الطريق لمن جاء بعدهم

١٢١– حنا الفاخوري وخليل الحر: المرجع السابق، ص٢٠٥.

وعبدوها، وأمنوا الاتصال بين العالم الهليني والعالم الغربي في القرون الوسطى، لإن النصارى اللاتين قد عرفوا بمفكري اليونان، أول ما عرفوهم عن طريق العرب، ذلك أن الترجمات العربية هي التي احيته من جديد، فكم كان تأثير السريان في ذلك كبيراً.

اللغة السريانية الحاضرة في العربية

مثلما وصلت اللغة العربية إلى لغات أخرى، وخاصة ما اشتق من اللغة اللاتينية، فان اللغة السريانية مازالت بصماتها باقية على العربية، ففي سبيل المثال نرى بصمات العربية على اللغة الإسبانية في كلمات عديدة نذكر بعضها:

الرئيس A RRAEZ القائد ALCAIDE و الرهن ALREHEN

الفارس ALFARAZ المخزن ALMACEN ... إلخ[١٢٢].

واللغة المالطية هي خليط من جملة لغات من بينها اللغتان العربية والإيطالية، لإن العرب مكثوا في هذه الجزيرة ٢٢٠ عاما، وخلفهم النورمانديون ١٠٤ أعوام، فالالمان ٧٢ عاما، فالإسبانيون ٢٤٦ عاماً، فالفرسان من طائفة القديس حنا الاورشليمي ٢٦٨ عاماً.

وإلى الآن يسمع الزائر في مالطا الكثير من الكلمات العربية الداخلة في اللغة المالطية، منها في سبيل المثال:

الثلاثاء القادم الثلاثا الجايني شيء جميل شي جميل

ماذا بك ؟ شعندك أو شي تحس؟ هل يمكن ؟ يسطاع يكون ؟

من قال لك ؟ مين قال لك؟ ماذا تريد؟ شي تريد؟[١٢٣].

١٢٢- شاخت وبوزورث: تراث الاسلام : ترجمة د. محمد زهير السنهوري: القسم الاول، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم ٨، ص١٣٦.

١٢٣- سمير عبده: هل اللغة المالطية عربية في أساسها، مجلة الجندي، دمشق، العدد ٣٤٢، ٣٠-١-١٩٥٨، ص٣٦.

وبين العربية والسريانية صلة من هذا القبيل، في حين يعتبر بعضهم تداخل الكلمات بينهما [١٢٤] هو نتيجة للأصول المشتركة بين مجموعة اللغات السامية، وهذا يعني أن الأصول المشتركة تكون عربية كما تكون سريانية، أو عبرانية، أو أية لغة أخرى من مجموعة هذه اللغات.

وغير هذا وذاك مما يجمع اللغتين هو ان يسوع المسيح تكلم بالسريانية، وكُتب الجزء الأكبر من الكتاب المقدس بها، وكذلك الحال مع الرسول العربي محمد (ص)، إذ نزل القرآن الكريم بالعربية، مما ساعد على حفظ هذه اللغة، وايجاد قاسم مشترك بين المسلمين جميعاً هو تلاوة القرآن الكريم باللغة التي أُنزل بها ألا وهي اللغة العربية.

وفي ذلك قد تكمن عظمة اللغة السريانية التي هي اللغة الآرامية ذاتها (كما شرحنا ذلك في الفصل الأول): والآراميون هم السريان انفسهم، والرسل دعاة المسيحية الأولين كانت لغتهم سريانية. ولما عرفت العصور الوسطى أن الرسل يتكلمون السريانية؛ كان كل من يقبل على تعاليمهم، ويتنصر من الآراميين يستبدل اسمه القديم الأصيل الآرامي بالاسم السرياني، ويفاخر بكونه سريانياً.

ومع تكلم يسوع المسيح ورسله السريانية فقد استمرت سائدة لدى قسم كبير من الشعوب الشرقية حتى أواخر القرن السابع للميلاد، إذا انتشرت اللغة العربية، فأخذت السريانية تتقلص رويداً رويداً، و لا تزال لهجاتها محكية حتى اليوم في طور عبدين بتركيا، المحاذية لشمال شرقي سورية، وقرى الموصل وغيرها من شمال العراق، وقرية معلولا وجبعدين ونجعه، رغم أن قسماً كبيراً من سكان هذه القرى ليس من الطائفة السريانية. ويمكن القول إن اللهجة المحكية في طور عبدين تمثل ٥٠٪ من فصاحة اللغة السريانية – لغة الكنيسة – و فيما يخص معلولا وجوارها تمثل سريانيتها ٢٠٪ فقط، حيث دخلت العربية، وبلهجة محلية، فاصبحت لغة لا هي سريانية، ولا هي عربية بالمعنى المطلق.

١٢٤- د. ابراهيم السامرائي: العربية، العبرية، السريانية، مجلة العربي، العدد ٢٤٩، اب ١٩٧٩، ص٨٦.

ولا زالت اللغة السريانية تتلى من خلال الطقوس الدينية في جميع الكنائس السريانية في انحاء العالم، إلى جانب لغاتها المحلية الوطنية، وتدرس في بعض كليات اللغة العربية كمادة ثانية. و«لم يطرأ عليها تبديل منذ استقرارها. وما ورد منها في التوراة، وما بقي من شعر الفيلسوف (وفا) يطابق كل المطابقة حالها اليوم، ولا تزال على غضارتها، وانمانسيت منها الفاظ بتقادم الزمان»[١٢٥].

وأول من بحث عند السريان في علم الفيلولوجيا – علم مفردات اللغة – هو البطريرك افرام الأول برصوم[١٢٦]. ومن خلال دراسة وتحقيق ٧٥٩ لفظة، رأى أن ٣٥٢ منها من أصول سريانية، والأخرى، وهي ٤٠٧ كلمات هي من أصول أكادية وعبرية وفارسية ويونانية.

وفي بحث نشرة الخوري إسحق ارملة[١٢٧] بين بعض اسماء القرى والمدن في سورية، من الأصل السرياني، ذلك أن العرب أبقوا القديم على قدمه، ولم يطلقوا اسماء عربية إلا على المدن والقرى التي احدثوها في عهد دولتهم.

على هذا فإن اللغة السريانية قائمة في أحاديثنا اليومية دون أن نتنبه إليها. إن آثارها ظاهرة في أسماء مدن وقرى عديدة في الشرق الأوسط (وفي اللهجات العامية في قسم كبير منه)[١٢٨].

ونرى أن اسماء المناطق والمدن والقرى في سورية لا تزال تحتفظ بأصلها السرياني، ومعظمها ألقاب توافق الوجه الطبيعي والعام والخاص، أو تدل على ثمار الأرض وطبع السكان. وكثيراً ما تحمل ذكرى وجيه أو ناسك أو أسقف شهير بغناه أو علمه أو تقواه.

١٢٥– البطريرك إفرام برصوم: المرجع السابق ص١٦.

١٢٦– البطريرك افرام برصوم: الالفاظ السريانية في المعاجم العربية – حمص ١٩٥٧، ص٩٨.

١٢٧– الخوري اسحق ارملة: القرى السريانية في مدن سورية ج٤، مجلة المشرق – بيروت ١٩٤٠.

١٢٨– انيس فريحة: معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية، دار النهار – بيروت ١٩٧٢، ص٥٦.

ومن الأسماء ما أتخذت صيغة سريانية بحتة، وهي جمع تنكير بالسريانية، مثل عفرين: أتربة، شورين: أسوار، جبرين: رجال، قابون: عمود، كفر: حصن وملاذ، كفرة: قرى، جبعدين: بقاع، حلبون: حليب، زملكا: رواق الملك ومصيفة، عين فيجه: عين الباردة، صيدنايا: صيدلي.

وهناك في اللغة العربية العامية، وفي بعض المناطق خاصة، نكاد نسمع الكلمات على أساس أنها عربية، بيد أن من يعرف السريانية يفهم الكثير من معناها.

وفي نهاية هذا الفصل لابد من التأكيد والتشديد على أن الحضارة العربية الإسلامية ترعرعت في بيئة مسيحية غلبت عليها السريانية، ولم تصطدم معها، بل بالعكس، حنت عليها وتقبلتها وساعدتها، فكانت نموذجاً يحتذى به لاستمرارية حضارة المنطقة.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الرابع

السريان المعاصرون

كانت المسيحية هي السريانية الى مجمع أفسس (مجمع مسكوني خاص) سنة ٤٣١م الذي نشأت عنه الكنيسة السريانية الشرقية (الاشورية- النساطرة) والى انعقاد مجمع خلقيدونية (مجمع مسكوني خاص) سنة ٤٥١م، حيث نشأت كنيسة الروم والموارنة(*) ومن ثم الكثلكة.

والى الآن يُعرّف المسلمون (المسيحيين) بأنهم السريان (كما هو شأن الاقباط في مصر) ليقينهم انهم المسيحيون الاولون، سكان سورية الاصليين الذين ازيح معظمهم، بحكم ظروف تحدثنا عنها في فصل الكنيسة السريانية، عن ارثوذكسيتهم واندماجهم مع طوائف واديان اخرى، حتى أن دمشق خلت منهم منذ الاربعينات من القرن التاسع عشر، وجرى الاستيلاء على كنيستهم التي هي الآن كنيسة السريان الكاثوليك في باب شرقي بدمشق. وبقي عدد قليل في حمص وحماه وحلب، الا أنه توجد قرى كانت باكملها تغص بالسريان، كقرى حفر، وصدد، وزيدل، وفيروزة، وخميله، ومسكنه، وعدد لا بأس به في قرية (القريتين). وهذه القرى كلها تقريبا على اعتاب البادية.

وحين اعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨م اخذت الكنيسة تنهض شيئا فشيئا، مستفيدة من نعمة الحرية التي منحت لجميع سكان البلاد على السواء، وظهرت على ساحتها فعاليات عديدة، ونشاطات كثيرة، فقد تشكلت جمعيات، وتألفت مجالس ولجان، وفتحت مدارس في كافة الابرشيات، وتأسست مدرسة كهنوتية في دير الزعفران بمساعي المطران بهنام سمرجي الموصلي، وشغلت مطبعة في الدير نفسه تقلد ادارتها الراهب افرام برصوم (البطريرك بعدئذ)، وصدرت أول مجلة سريانية عام ١٩١٣ باسم (الحكمة)، ولكن اندلاع الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤م أجهض كل ذلك، وخنق تلك النشاطات، مثال ذلك احتجاب المجلة، واغلاق المدرسة الكهنوتية(١٢٩) بعد أن تفككت فلول الامبراطورية العثمانية، وانبثقت كيانات وحكومات العراق، سورية، فلسطين، الاردن، ولبنان.

* تبدأ سلسلة البطاركة البيزنطيين- وهم الروم الارثوذكس من سنة ٥١٨م الذين اطلق عليهم لقب الملكيين.

١٢٩- المطران اسحق ساكا: المرجع السابق، ص١٢٨.

إن أعوام ١٩١٥ – ١٩٢١م لا تنسى من ذاكرة السريان، فقد قدموا آلاف الشهداء الابرياء، وشرد منهم الآلاف في طول البلاد وعرضها، في الوقت الذي كانت الكنيسة – ولا تزال – مخلصة لارض أجدادها، خاضعة للسلطة المدنية، وهي التي رفضت عبر العصور حماية الدول الاجنبية.

ونزح السريان من مناطق ماردين، وطور عبدين، وديار بكر، وخربوت نتيجة لمذابح الإرمن، وأهوال الحرب العالمية الاولى ، وما تعرضوا له من اضطهاد وظلم ووحشية، ولتخطيط الحدود ،مفضلين الانتماء الى المنطقة العربية. ووصل هؤلاء، أول ما وصلوا، الى منطقة الجزيرة القريبة منهم، وتابع قسم منهم الى حلب، وحمص، وحماه، والشام، وفلسطين(*) والاردن(**) ، ولبنان(***).

ونتيجة لهذه الهجرة رأينا كنيسة مارجريوس تشاد في حي حنانيا بدمشق عام ١٩٢٣م، وهي أول كنيسة تبني بعد أن اضمحل سريان دمشق وحواليها، فكان ان انضووا إلى الطوائف المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية في الأغلب. ومن المستبعد أن يكون المرء سريانيا دمشقيا إصيلا، لأن وصولهم الى دمشق اتى مع بدايات القرن العشرين، ودخول الحرب العالمية الاولى، وما تبع ذلك من هجرة وتقتيل.

وفي الثلاثينات من هذا القرن كان يسكن دمشق ربع مليون نسمة في عشرين ألف دار، تسعة أعشارهم عرب، والباقون شراكسة وأرمن وغيرهم ممن جاء في الزمن الإخير، ولم يتسن له الامتزاج بأهلها بعد.

---

*– قدر عددهم عام ١٩٩٦ بـ ٢٠٠٠ شخص يسكنون بين القدس وبيت لحم، وفي وقت ما وصل الى ٥٠٠٠ نسمة نزح معظمهم الى بلاد الاغتراب، وبخاصة الولايات المتحدة، ومن اشهر سريان فلسطين الروائي العربي الكبير (جبر ابراهيم جبرا).

**– قدر عددهم عام ١٩٩٦ بـ ٣٥٠٠ شخص، وكثير منهم من نازحي فلسطين.

***– يقدر عدد السريان في لبنان بـ(١٥٥٠٠) نسمة موزعين على بيروت وزحلة ، في الاغلب، وحسبما كان معمولا في هذا البلد، وبما أنهم من الأقليات، فقد كان باب الوصول الى الوظائف العليا مسدوداً أمامهم، وحسب وزارة الداخلية اللبنانية فقد كان هناك ٨٤٩٧ سريانيا عام ١٩٩٢ ممن يحق لهم الانتخاب وفوق ٢١ سنة من العمر. ينظر: مجلة الاسبوع نقلا عن العربي- بيروت العدد ١٩٢ / ٢٩-٧-١٩٩٦م ، ص١٦.

وللتعرف على بداية نزوح السريان من الجزيرة وسكناهم في دمشق يمكن أن نورد الجدول الآتي الذي يبين عدد سكان دمشق في الثلاثينات.

المجموع	الذكور	الاناث	
١٧٨٧٠٥	٨٣٨٠٣	٩٤٩٠٢	مسلمون
٩٥١٨	٤٩٣٢	٤٥٨٦	موسويون
١٨٨٢٢٣	٨٨٧٣٥	٩٩٤٨٨	
٦١٧٤	٣١٥٣	٣٠٢١	روم ارثوذكس
٥١٤٠	٢٥٠٥	٢٦٣٥	روم كاثوليك
٣٦٠	١٩٦	١٦٤	ارمن ارثوذكس
١٩٢	٩٠	١٠٢	ارمن كاثوليك
٩٧	٥٧	٤٠	سريان ارثوذكس
٥١٥	٢٤٦	٢٦٩	سريان كاثوليك
٤٨	٢٤	٢٤	كلدان
٩٥	٣٩	٥٦	لاتين
٢٧٤	١٠٣	١٧١	مارونيون
١٣٣	٧٥	٥٨	انجليوث (بروتستانت)[١٣٠]

في حين كان عدد المسيحيين في دمشق عام ١٩٦٠م (٤٥٦٤١) من أصل (٥٢٩٩٦٣) نسمة[١٣١].

أما سكان (لواء) الجزيرة، قبل أن تصبح محافظة، فكان عددهم عام ١٩٣٤م (٢١٣٦١) نسمة، وهو أقل نسبة سكانية في سورية، في حين كان عددهم في احصاء عام ١٩٣٩م (١٠٦٣٥٢) نسمة، أي بعد أن كان لواء دير الزور (١٠٥٤١٣) نسمة في الاحصاء الاول اصبح في الثاني (٢٢١٣٧٧) نسمة.

وبين احصاء عام ١٩٣٤ و ١٩٣٩ زاد عدد سكان سورية أكثر من ١٢٪، فاضافة الى الزيادات الطبيعية لعدد السكان، ربما كان الاحصاء الاخير قد شمل

١٣٠- عبد العزيز العظمة: مرآة الشام، تاريخ دمشق واهلها . منشورات رياض الريس للكتب والنشر- لندن- دون تاريخ، ص ٢٤.

١٣١- د. صفوح خير: مدينة دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي- دمشق ١٩٨٢، ص ٢٧٩.

الكثيرين ممن لم يتمكنوا من تسجيل انفسهم ممن هاجروا من ماردين ولواء اسكندرون، وغيرها من المناطق التي كانت تابعة لسورية الطبيعية.

وشكل المسيحيون (١٥,٥٪) من سكان سورية عام ١٩٣٤.

المجموع العام

١٤١٤٧٢٠	مسلمون
٢٦٩٤١٠	مسيحيون
٢١٧٣٠	موسويون
١٧٠٥٨٦٠	
١٩٣٥٠٩	المسجلون عام ١٩٣٤ من مختلف المذاهب.

المجموع العام للمسيحيين

١٩٢٠٦٦	ارثوذكس
٦٩٨٣٨	كاثوليك
٧٥٠٦	بروتستانت
٢٦٩٤١٠	

افراديات المجموع العام للمسيحيين

٨٩٩١٨	روم ارثوذكس
٦٥٥٦٧	ارمن ارثوذكس
٣٦٥٨١	سريان ارثوذكس
٣٣٣٨٩	روم كاثوليك
١٢٢١١	سريان كاثوليك
١٢٤٢١	ارمن كاثوليك
٧٥٠٦	بروتستانت
٣٠٤٩	كلدان
٤٨٣٩	موارنة
٣٩٢٩	لاتين
٢٦٩٤١٠[١٣٢]	

١٣٢- استلت الارقام من كتاب عبد العزيز العظمة، المرجع سابق، ص٢٧.

إن صحت هذه الارقام فان عدد السكان السريان بالنسبة لبعض الطوائف كان كبيرا الى حد ما، ولا يتناسب البتة مع عددهم الحالي الآن، وربما كان سبب ذلك هجرتهم، أو فقرهم في ذلك الوقت. لنقارن مثلا أن عددهم كان أكبر من أي طائفة كاثوليكية، فزيادتهم عن طائفة الروم الكاثوليك كانت بحدود (٣١٩٢) نسمة، ومع ذلك فان عدد الروم الكاثوليك الحالي يفوق عدد السريان.

وقد تبدل الامر في غضون عشر سنوات من (١٩٤٦ - ١٩٥٦)، فعدو افراد طائفة الروم الكاثوليك كان عام ١٩٤٦ (٤٨٧٧٣) نسمة في حين نقص عدد السريان الارثوذكس الى (٤٢٥٦٠) نسمة، ويأتي هذا النقص بسبب الهجرة الثانية للسريان من سورية إلى البلدان المجاورة، في حين كان عددهم عام ١٩٤٤ (٤٠٩٩٤) نسمة، والروم الكاثوليك (٤٧٥٢٢) نسمة[١٣٣]، أما عدد السريان الكاثوليك فكان ؛(١٦٥٦٢) نسمة.

والى آخر احصاء نشر في المجموعة الاحصائية السورية كان عدد المسيحيين يشكل ١٥٪، وهي نسبة بقيت مدونة الى العام ١٩٥٦ عن عدد افراد الطوائف في سورية.

المجموع العام عام ١٩٥٦

٣٤٨٤١٣٢	مسلم
٣٢٠٣٤	موسوي
٥٠٨٩٩٩	مسيحي
٤٠٢٥١٦٥	

المجموع العام للمسيحيين عام ١٩٥٦

٣٥١١٣٤	ارثوذكس
١٤٥٣٤٨	كاثوليك
٧٥٠٦	بروتستانت
٥٠٣٩٨٨	

١٣٣- المجموعة الاحصائية السورية لعام ١٩٥٦، مديرية الاحصاء، وزارة الاقتصاد الوطني - دمشق، السنة التاسعة.

افراديات المجموع العام للمسيحيين عام ١٩٥٦

١٨١٧٥٠	روم ارثوذكس
١١٤٠٤١	ارمن ارثوذكس
٦٠١٢٤	روم كاثوليك
٥٥٣٤٣	سريان ارثوذكس
٢٠٧١٦	سريان كاثوليك
٢٠٦٣٧	ارمن كاثوليك
١٩٢٩١	موارنة
١٢٥٣٥	بروتستانت
١١٧٦٠	نسطوريون
٧٠٧٩	لاتين
٥٧٢٣	كلدانيون [١٣٤]
٥٠٨٩٩٩(*)	

وهذه الارقام، شئنا أم ابينا، ستعتمد اساسا في حساب الارقام شبه التقريبية لعدد السريان الارثوذكس في سورية -كنموذج- لانه لا يوجد احصاء رسمي نشر بعد تاريخ ١٩٥٦ في المجموعة الاحصائية- في الاقل- كما تابعنا ذلك من خلال استعراضنا لكل اعدادها اللاحقة، وهي الجهة الوحيدة التي كانت تنشر مثل تلك الارقام.

وبين عامي ١٩٥٦-١٩٩٥ ازداد عدد سكان سورية ٣,٧٥ مرة، فاصبح ١٤,٢٨٤ مليونا [١٣٥] بعد أن كان نحو أربعة ملايين. وبحسب تقديراتنا فان المسيحيين، وبخاصة السريان، كانت نسبة ولاداتهم، أو اعمارهم مقارنة مع

١٣٤- المجموعة الاحصائية السورية لعام ١٩٥٦ مديرية الاحصاء، وزارة الاقتصاد الوطني- دمشق، السنة التاسعة.

*- هناك بعض الفوارق الطفيفة بين الارقام المبينة في كل بند مما لا يخفي على القارئ اللبيب.

١٣٥- مجلة المستقبل العربي- بيروت، العدد ٢٠٩، ٧-١٩٩٦ ، ص١٨٢.

اخوانهم المسلمين ٠,٧٥ من أصل ١,٠٠ فيحسب تكاثر السريان على النحو التالي:

عدد السريان الارثوذكس عام ١٩٥٦ = ٥٥٣٤٣×٢,٨١=١٥٥٥١٣ نسمة.

ويمكن اخراج ١٣٥٠٠ نسمة ممن هاجروا الى السويد وكندا والولايات المتحدة منذ العام ١٩٦٥، فيبقى ١٤٢٠١٣ نسمة، هو العدد الافتراضي للسريان الارثوذكس في سورية، ويشكل هذا الرقم ما نسبته ١٪ من عدد السكان(١٣٦).

أما بقية السريان فهم موزعون، كما بينا على مناطق سورية الطبيعية، وفي تركيا، حيث حدثت هجرات متلاحقة من الاماكن الاساسية لسكنى السريان في آزخ وماردين والقرى والبلدات العديدة المحيطة بها، وفي مذيات وديار بكر، اتجه الكثيرون في ربع القرن الاخير الى اسطنبول ممتهنين صناعات تقليدية متوارثة بينهم، فكان ان تحسنت احوالهم المادية بسرعة كبيرة، احتلوا على اثرها مكانة في عالم الصناعة والتجارة، وهذا ما شجع بعضهم للانتقال الى الولايات المتحدة، أو الى النمسا وهولندا والمانيا..

ويمكن القول في حين كانت قرى باكملها تغص بالسريان في منطقة (فوق الخط)، وهو الاسم الذي يطلق على موطن السريان في ماردين الى ديار بكر، وهذه المنطقة كانت تابعة لسورية، وانتزعت منها كما حدث للواء اسكندرون، وفي قرى وبلدات الى الشمال من هذا اللواء كأورفا وخربوت وغيرها. وكان ذلك عقيب الحرب العالمية الاولى، فان عشرات القرى التي عاش فيها السريان آلاف السنين باتت خاوية منهم، منها، في سبيل المثال، (معسرته) و (قلعة الامراء) التي يتفاخر سكانها بانهم كانوا حراس المقر البطريركي في دير الزعفران، وخرجت هذه القرية الكثيرين من رجالات العلم والثقافة، مثل البروفيسور (سيمون جارجي) استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة جنيف، و (عبد العزيز سعيد- اسحق) من اشهر اساتذة السياسة الدولية في جامعة واشنطن- الولايات المتحدة.

١٣٦- حسب ما اورده (مرصد الاقليات في الشرقين الادنى والاوسط) الفرنسي، فان عدد المسيحيين في سورية انخفض من نسبة ١٥٪ من عدد السكان عام ١٩٣٤ و ١٩٥٦ الى أن بلغ عام ١٩٩٠ (٨٪).
صحيفة السفير - بيروت، ٣١-٨-١٩٩٣، ص٣.

كانت الهجرة التي بدأت منذ العام ١٩٧٥ الى السويد قد باشر بها قسم من السريان السوريين، ومن ثم لحقهم سريان من تركيا، وقد توجه قسم من هؤلاء الى اسطنبول والى المانيا وهولندا والنمسا، حيث احتميت ابرشيات هناك، وأخيرا الى انكلترا.

وفي الولايات المتحدة تواجد السريان في ولاية نيويورك، ومن ثم في لوس انجلوس، وفي بقية الولايات الامريكية، حيث كانت الهجرة من القرى السريانية المحيطة بحمص كزيدل وفيروزة، ومن ثم في الخمسينات كانت الهجرة الى كندا(*) فالبرازيل، واماكن اخرى في امريكا اللاتينية كالارجنتين وفنزويلا، وغيرها من الدول حيث تتبع ابرشية البرازيل.

واخيرا كانت الهجرة الى منطقة قاصية من العالم ألا وهي استراليا ونيوزيلندا(**) .

ويبقى عدد السريان في ارجاء العالم مجهولا في الحسابات العلمية الصحيحة، عدا الرقم الذي اعطيناه لعددهم في الهند.

ولهذا سعينا، بقدر معايشتنا لهذه المشكلة، ولقربنا من احداث وتطورات هذه الطائفة والفئة التي تنتمي اليها، أن نورد الارقام التي قدمناها بحرص كامل على اعطاء مصداقية لها، فكانت مراجعتنا خلال عقود طويلة لرؤساء هذه الطائفة في مناطقهم وما كتب عنها، كما عدنا في الكثير من الاحيان الى مرجعيات، قد لا تخطر على البال، عن شؤون الطائفة، وذلك بتتبع البيان السنوي الذي تصدره كل ابرشية أ . مرجعية، موردة اسماء المحسنين الذين دفعوا ما يتوجب عليهم سنويا تجـ . كنيستهم وطائفتهم، وهذه الاسماء قد لا تبتعد عن الواقع أكثر من عشـ ة في المئة.

ومن خلال المقارنات والاستنتاجات تبين لنا أن عدد السريان في ارجاء العالم–عدا الهند– يتراوح بين ٢٥٠الفا و٣٠٠الفا نصفهم يسكن الجمهورية العربية السورية، ويأتي العراق في المرتبة الثانية.

---

*– قدر عدد السريان في كيوبيك– كندا بـ ٦٠٠عائلة، تضاف اليهم ٥٠ عائلة في بقية مناطق كندا.

وبهذه المناسبة فقد اغفلت معظم المراجع التي اطلعنا عليها عددهم الصحيح، بل حتى التقريبي، وهذا مما يسترعي انتباه المؤرخ، فحسب (مرصد الاقليات في الشرقين الادنى والاوسط الفرنسي) كان تقديره بـ ٨٠ الفا [١٣٧] ، وفي مرجع آخر ١٢٠ الفا[١٣٨] ، ومن خلال هذين المرجعين -في الاقل- اغفل العدد الاصلي عن نصفهم ان لم يكن عن ثلثيهم.

ومن المؤسف ألا يوجد قيد أو سجل لعدد السريان في معظم ابرشياتهم الكنسية، وهي الجهة التي تتولى أمورهم الروحية، هذا عدا عن اغفالهم، أو ادماجهم في طوائف اخرى حتى في مراجع رسمية وحكومية.

ويلاحظ أن معظم المواطنين والمهاجرين والمغتربين يحرصون على الحفاظ على هويتهم الثقافية والروحية، ويجهدون أنفسهم لتربية الاجيال الجديدة من ابنائهم على التمسك بها، ولا يقتصر وجودهم على فئة المندمجين أو المتجنسين، لكنهم لا يزالون وسيبقون لفترة طويلة، في اتصال مستمر، ومن ثم في حالة تبادل مع اوطانهم الاصلية، حيث أن الباقين في أرض الوطن استبعدت لديهم نوايا الهجرة بعد أن اغلق بابها تقريبا.

أنها لخسارة كبرى تلك الهجرة للسريان التي تعاقبت منذ الستينات من المنطقة السورية الى ديار الغرب، ففي ذلك فقدان لدعامات بشرية في اوطانها الاصلية، وطاقة لا يستهان بها لمهارات خلاقة كان اثرها في منطقتها ظاهرا ومعترفا به.

وبالرغم من ذلك، فقد نجح السريان، في اكثر من موقع، وعبر اكثر من مرحلة تارخية، في مقاومة محاولات تدمير المقومات الثقافية والذاتية لهويتهم، لا مجال لتعدادها جميعا، سواء اتت هذه المحاولات من حملات الغزاة الفرنجة، أو التتار، أو المغول، أو الاتراك.

**- يقدّر عدد السريان في هذين البلدين بـ ٥٠٠ عائلة.

١٣٧- صحيفة السفير، المرجع السابق.

١٣٨- الحسن بن طلال : المسيحية في العالم العربي: المعهد الملكي للدراسات الدينية - عمان ١٩٩٥، ص١٣١.

- والسريان في الاغتراب على اتصال مستمر مع بطريركيتهم في دمشق ،أو عبر رجال الدين المتواجدين في بلدان الاغتراب، والكثيرين منهم يزورون دمشق للتبرك من قداسة بطريركهم زكا الاول عيواص.

- كما أن اخبار السريان في العالم تتناقل عبر (المجلة البطريركية) التي تصدر عن بطريركية، وسائر المشرق للسريان الارثوذكس منذ العام ١٩٦٢- في دمشق، وبعشرة اعداد سنويا، حيث يخصص نصفها الاول للمواضيع الدينية والتاريخية التي تخص السريان، في حين يخصص النصف الثاني لأخبار الابرشيات المنتشرة في الكثير من بلدان العالم، فيتعرف القارئ على الكثير من الاخبار الرعوية والاجتماعية والثقافية مما يبقي صلة وصل بين السريان، بالرغم من تشتتهم هنا وهناك.

سريان الهند

يذكر د. حتي أن العمل التبشيري الباهر الذي تجقق في الشرق الاقصى كان ما بين القرن السابع والتاسع، ثم في غضون القرن الثاني عشر والرابع عشر تسللت جماعة من الرهبان السريانيين الى داخل الصين، فوصلت الفئة الأولى منهم الى (سيانو) سنة ٦٣٥م في الوقت الذي كانت جيوش المسلمين تفتح بلاد فارس. ولقد نصبت لوحة تذكارية لستة وسبعين من هؤلاء المرسلين نقشت عليها أسماؤهم ومآتيهم باللغتين الصينية والسريانية، وذلك في السابع من الشهر الاول من عام ٧٨١م ، وهذه اللوحة لا تزال قائمة في تلك المدينة الى اليوم [١٣٩].

أما سريان الهند فلهم قصة تروى، فقد كان دخول المسيحية الى الهند على يد الرسول مارتوما، أحد تلاميذ الرب الاثني عشر، وذلك في أواسط القرن الاول للميلاد، وبالتحديد في جنوبها، في المنطقة التي تدعى مليبار، وتسمى اليوم (كيرالا)، واستشهد عام ٧٥م في بلدة ميلابور القريبة من مدارس.

وكان الميلاد الثاني للمسيحية على يد الجالية السريانية الرهاوية التي ارسلها البطريرك الانطاكي الى هناك، بعد أن ضعفت المسيحية جدا في الهند، وكان ذلك في

١٣٩- فيليب حتي: المرجع السابق، ص١٣٦.

اواسط القرن الرابع حيث رفدها باربعمائة فرد من الكهنة والشمامسة والرجال والنساء والاطفال، وقد دعوا منذئذ سريانا، وكان زواجهم زواجاً داخلياً.

وتبدو حقيقة ارتباط الكنيسة السريانية في الهند بالكرسي الوسولي الانطاكي باستعمال الطقس السرياني باللغة السريانية، أو مترجما الى اللغة المحلية (المليالم)، مع المحافظة على سلامة المعنى، وأصالة الالحان السريانية التي ورثها السريان عن آبائهم منذ صدر النصرانية. ومع مرور الزمن انفصلت عن الكنيسة السريانية فرق عديدة لا يزال بعضها يستعمل الاسم والطقس السرياني، وبعضها رفض ذلك وابتعد عنه، وكلها نشأت بمساعدة قوى سياسية استعمارية كالبرتغاليين الذين استعمروا الهند، أو كما حصل في مشرقنا العربي.

ومع مرور الزمن، كادت الكنيسة في الهند تفقد ارتباطها بالكرسي الانطاكي، فقام المثلث الرحمات البطريرك بطرس الرابع بزيارة رسولية رسمية للكنيسة السريانية في الهند، استغرقت سنتين. وأسس هذا البطريرك كنائس سجلها باسم الكرسي الرسولي الانطاكي، فتوطدت سلطة البطريرك الروحية، وعقد مجمعا في بلدة مولنطورني في ١٥ حزيران عام ١٨٧٦م وفي عام ١٩٠٩م قام البطريرك غريغوريوس عبد الله بزيارة رسولية الى الهند حيث رسم مطارنة لتلك البلاد [١٤٠].

وبعد ذلك حدثت انشقاقات في هذه الكنيسة الى أن أصدرت محكمة الهند العليا في حزيران ١٩٩٥ حكمها الذي اعادت به ما كان قد لحق بتبعية الكنيسة السريانية في الهند الى الكرسي الانطاكي، وهو نصر تحقق في عهد قداسة البطريرك زكا الاول عيواص [١٤١].

وخرجت هذه الطائفة الكثير من كبار اساتذة الجامعات في الهند، وفي الكثير من الحالات كان يوجد وزراء سريان في ولايه كيرالا. وفي وقت ما وصل احد السريان الى أن يصبح وزير التسليح الهندي. وفي أواسط الثمانينات كان سفير الهند في سورية من أصل سرياني.

١٤٠- استقيت المعلومات من الكنيسة السريانية في الهند، من كتاب البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث: الكنيسة السريانية الهندية العطشانة - لبنان ١٩٧٤، ص٢٩.

١٤١- البطريرك زكا الاول عيواص: كنيسة انطاكية السريانية ودعوى المنشقين عنها في ملبار- الهند المجلة البطريركية - دمشق، العددان ١٤٩-١٥٠ ، تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٩٥، ص٦١٠.

ويقدر عدد السريان الذين يتبعون الكرسي الانطاكي في الهند بثلاثة ملايين ونصف.

اخيرا يمكن القول إن الكنيسة السريانية الارثوذكسية تنفرد بين الطوائف المسيحية الاخرى في أن أي سرياني في العالم يتبع الكرسي الانطاكي الذي مقره دمشق، وبذلك تكون هذه الطائفة سورية في أساسها، لها فروعها في أنحاء العالم.

سريان الجزيرة

نرى، في ضوء ما أسلفنا، أن الهجرة التي قام بها السريان، في القرن العشرين، كانت من خلال بقعة جغرافية تمتد من نبع النهرين: الفرات من ارمينيا، ودجلة من شرق جبال طوروس في تركيا، إلى إطراف تكريت، المدينة الواقعة في أواسط العراق، على شاطئ دجلة الايمن شمالي سامراء، وقد سميت شنعار وبيت نهرين وميسوبوتاميا، وعند العرب بالجزيرة، أو اقليم، أو (لواء) الجزيرة. وكانت فيها مضارب ديار ربيعة ومضر وبكر، وكانت مركزا مسيحيا مهماً، حيث احتضنت كرسي مفريانية المشرق، وهي الرتبة التي تلي البطريركية عهدا طويلا.

ومن دون الخوض في اثنية الشعب القاطن في هذه البقعة الجغرافية، وذلك لأن موضوعا كهذا يشكل حساسية معينة، مادامت لا تتوافر لدينا المصادر الموثوق بها، والتي تعود تاريخيا الى الفترة الزمنية التي نتناولها، فان المصادر السريانية تؤكد على أن الآراميين كانوا يشكلون الغالبية الساحقة في هذه المنطقة. وليس من المبالغة القول بأن الآراميين هم ورثة حضارات سادت، ثم بادت في بلاد ما بين النهرين، ولكننا مع هذا نؤكد على أن السريانية وهي الآرامية، كما مر معنا، وقد تكون متطورة، كانت تشكل لغة المعاهد والمدارس ودور الثقافة، وبخاصة في المرحلة التي تلت انتشار المسيحية، وحتى دخول الاسلام الى بلادنا. وليست السريانية لغة كنيسة فحسب، بل لغة التراث الفكري والعلمي والإدبي والفني وغيرها، كما يظهر جليا من تاريخ الفكر السرياني في العهد المسيحي الاول. وقد ظلت السريانية منافسة لليونانية حتى عندما كانت بلاد ما بين النهرين ولاية رومانية وبيزنطية.

ويرى المطران غريغورس يوحنا ابراهيم ان السريانية بقيت في العهد البيزنطي الاول اللغة الام للأغلبية الساحقة لسكان ما بين النهرين، ولا سيما بعد

القرن الرابع للميلاد. وحيث انتصرت المسيحية على الوثنية في معظم مدن وقرى بلاد ما بين النهرين، فقد نبذ المسيحيون اللغة اليونانية، وانفردوا بالسريانية، وقاوموا الكتابات الوثنية ما أمكن، وقاموا بنشاط ديني وفكري لا مثيل له في التاريخ. لقد كانت الكنيسة سريانية وكذلك لغتها ، والشعب كان واحداً، تاريخا وحضارة وفكرا وتراثا، ولكنه منقسم الى كنيسة ارثوذكسية عرفت خطأ باليعقوبية ونسطورية، وتسمى اليوم آشورية (١٤٢).

وبعد التجزئة التي حصلت لاقطار الوطن العربي انحصرت تسمية (الجزيرة) في المحافظة السورية التي تحمل هذا الاسم. وكما ذكرنا، فان هذه المنطقة كان يسكنها السريان منذالقدم، لانها من المناطق الخضبة منذ آلاف السنين. وقد مر عليها في ازمنة مختلفة حكام كانوا ظالمين لاهاليها، ولهذا هاجروا منها على دفعات، فمثلا عام ٦٩٢م «عمل عبد الملك [بن مروان] تعديلا على السريان، وأصدر أمرا شديدا يقضي أن يتوجه كل واحد الى بلدته وقريته وبيت أبيه، ويكتب اسمه ،وابن من هو وكرمه وزيتونه وما شيته واولاده وكل ماله. ومن هنا بدأ أخذ جزية الرأس، ومن ثم طفقت جميع البلايا تنزل بالشعب السرياني. وكان الملوك حتى هذا الزمان يتقاضون ضريبة الارض وجزية الرجال. وهذا أول تعديل عمله المسلمون» (١٤٣).

كذلك الامر مع موسى بن صعب حين صار اميرا على الجزيرة والموصل عام ٧٦٧م، وقد كان ظالماً شديدا مبغضا للنصارى. ونقلا عن الراهب الزوقيني السابق الذكر «تفنن هذا الشخص بانواع الشدائد مما لم يصر منذ صدر العالم، وعلق أختام رصاص في أعناق الناس جميعا- وعقد أباهم أيديهم، وطلب الجزية من الحيطان

١٤٢- المطران غريغوريوس يوحنا ابراهيم: المراكز الثقافية في بلاد ما بين النهرين، المجلة البطريركية- دمشق، العددان ١٥١-١٥٢ كانون الثاني وشباط ١٩٥٦، السنة ٣٤، ص١٩ و٢٠.

١٤٣- روى ذلك ماراغناطيوس افرام الاول برصوم بطريرك انطاكية وسائر المشرق للسريان الارثوذكس في كتيب له عنوانه (مزارع الجزيرة)، المطبعة الحديثة- حمص ١٩٥٥، نقلا عن المؤلف الراهب الزوقيني المؤرخ الذي عرف سنة ٧٧٥م في الصفحة ١٥٤ من المجلد الثاني من تاريخه السرياني الذي نشر في مجلدين بباريس عام ١٩٢٧-١٩٣٣ ، وكان شاهد عيان على معظم الاحداث التي ارخها.

والابواب والكوى حتى حفر الناس القبور القديمة، وأخرجوا منها ذهبا وفضة لأداء الضريبة» (١٤٤).

ومن خلال مذكرات الرحالة البريطانية الليدي آن بلنت (١٤٥) التي زارت الجزيرة عام ١٨٧٨م نرى هذه المنطقة وقدكان يحكمها شيوخ القبائل، حيث توطدت صلتها معهم وعلى رأسهم عشيرة الشمر، وتعدد مزايا معاملتهم للغريب، ومدى تمسكهم بروح العادات العربية.

وفي هذا الوقت كانت منطقة سكنى السريان في نصيبين وماردين وخلفهما من المناطق المرفقة مثل مذيات وديار بكر وطور عبدين. وحين نزح هؤلاء بفعل عوامل الحرب العالمية الإولى، وما قبلها وبعدها، والمذابح التي اصابتهم، فقد استوطنوا (الجزيرة)، وانشأوا مدينة القامشلي، وتوسع عمرانهم في المدن والقرى التي أنشأوها. (*).

وغدت الجزيرة في غضون سنوات قلائل بلاد الخيرات والنعم، وبها تجلت طبقة من الناس استطاعت، بتوارث فطرتها ودقة عملها وتوالدها الحضاري العريق أن تنهض بتلك المنطقة بشكل أذهل الكثيرين من المراقبين (١٤٦).

في عام ١٩٤٢م خدد أحد المصادر مساحة ارض الجزيرة بـ ٥٣ألف كيلو متر مربع، وهي خصبة جدا تصلح للزراعة على انواعها، ولكن طريقة الحرث والاستثمار لم تزل على حالها القديمة، فلو دخلها فن الزراعة الحديث لازدادت محصولاتها اليوم زيادة هائلة. وتبلغ حاصلات الحبوب وحدها ٥٠الف طنا في السنة بالرغم من انحطاط اساليب الزراعة كما أسلفنا (١٤٧).

١٤٤- ماراغناطيوس افرام الاول برصوم، نقلا عن الراهب الزوقيني، المرجع سابق، ص٥.

١٤٥- الليدي آن بلنت: قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨، ترجمة أسعد الفارس ونضال خضر معيوف، دار الملاح للطباعة والنشر - دمشق ١٩٩١.

* اتت هجرة اخرى الى سوريه حين جلا الفرنسيون عن كيليكيا عام ١٩٢٢م فاضطر المسيحيون، ومنهم السريان للهجرة عن اطنه، كذلك الحال بالنسبة لمدينة الرها حيث هجرها السريان الى سورية ولبنان عام ١٩٢٤.

١٤٦- يتطرق الى ذلك الدكتور يوسف صايغ في كتابه: التنمية العصية، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩٢، ص٢٧١.

١٤٧- مجلة (الجامعة السريانية) بوينس آيرس- الارجنتين: قضية الجزيرة، عدد خاص صدر عام ١٩٤٢م، ص٩.

ويذكر نفس المصدر أهمية البترول في الجزيرة (قبل أن يستخرج)، والآمال التي قد تعقد عليه، والمفاوضات التي جرت مع شركة نفط العراق، واصطدام اركان الحكومة مع الوفد المفاوض، وتهديد سورية بسلخ الجزيرة عنها والغاء المعاهدة وانتقال المفاوضات من دمشق الى باريس، واستعمال الشركة نفوذها الدولي للحصول على ما تخشى فقده [١٤٨].

ربما استوعب السريان مدى اهمية هذه المنطقة اذا ما زرعت، ويعتبر عصرهم الذهبي في الزراعة بين اعوام ١٩٤٠ الى ١٩٦٥م، ففي هذه السنوات أدخلت الاساليب الحديثة في الزراعة، ونظمت طرق الري على احدث طراز. وقد اتيح لي عام ١٩٥٤ أن ازور مزرعة (مبروكة) التي تقع بالقرب من رأس العين، فرأيت مزرعة نموذجية لا تختلف عن المزارع الامريكية في تنظيمها، وقد حددت مساحتها بعشرات الكيلو مترات، وكانت تعود لآل اصفر ونجار الذين تفننوا بطرق الزراعة، فاصبحوا الرواد بها، حتى أنهم حين تركوا الزراعة في سورية، وقت صدور قانون الاصلاح الزراعي، اتجهوا الى السعودية فكانت مزارعهم هناك أعجوبة من أعاجيب الدهر، حيث وصلت غلة الحبوب في هذا البلد الصحراوي الى أن يكتفي ذاتيا، ويصدر من حبوبه حتى الى الاتحاد السوفيتي آنذاك.

ومما يذكر هنا أنه في مطلع الخمسينات تنادى بعض الشخصيات العاملة في مجال الزراعة، وأسس غرفة زراعة الجزيرة، ولعب الدور البارز في ذلك الشخصية المعروفة (يوسف صباغ). وقد انتخب رئيسا للغرفة الزراعية لعدة دورات. وبمبادرته أصدرت الغرفة مجلة (الرسالة الزراعية) التي كانت تهتم بقضايا الزراعة والمزارعين، ونشر الوعي الزراعي الحديث، مما أسهم في تحقيق نهضة زراعية شاملة[١٤٩].

١٤٨- مجلة (الجامعة السريانية)، المرجع السابق، ص١١.
١٤٩- المجلة البطريكية- دمشق، العدد ٨٦ ، حزيران ١٩٨٩ ، السنة ٢٧، ص٣٠٧.

وكانت مدينة القامشلي في ذلك الوقت محط الانظار، إذ كان اهاليها اغنياء مع ازدياد مواردهم المادية من الزراعة، وكانوا يتفننون في الشراء من بيروت قبل أن تصل البضاعة الى حلب، وهي طريق عبور البضائع لهم.

لقد أقام السريان في الجزيرة علاقات وطيدة مع العشائر العربية هناك حتى أن الخلافات التي كانت تحدث بينها كان يحتكم بها الى رجل دين فاضل هو المطران (قرياقس)، الذي تربع على سدة مطرانية السريان في الجزيرة لعقود عدة، فكان هو الحَكَم والقاضي، وبذلك اعطى مثالا للحمة الوطنية بين ابناء المذاهب المختلفة.

وعلى ذلك تبقى منطقة الجزيرة هي مركز الثقل البشري والمعنوي للسريان في سورية.

سريان العراق

يأتي السريان في العراق في المرتبة الثانية بعد سورية من حيث العدد، فهو يبلغ الان نحو (٥٠٠٠٠) نسمة، وهم من الفئات المثقفة جدا وفي بحبوحة مادية، وكان عددهم اكثر من ذلك بكثير، ولكن تقلبات الايام جعلت قسم منهم يهاجر الى الولايات المتحدة، وبلدان اوروبا، وامريكا اللاتينية حيث نجحوا هناك تماما. وللسريان في العراق تاريخ مجيد، وكان لهم وجود في الكثير من المدن والقرى التي لم يبق لهم اثر فيها، فمدينة تكريت- مثلا- التي لم يبق فيها سرياني واحد، وهي موطن الكثير من علمائهم وأدبائهم، كانت لها منزلة سامية في التاريخ الكنسي السرياني لانها كانت لاجيال طويلة عاصمة دينية لكنيسة المشرق السريانية الارثوذكسية، وكان يقيم فيها (المفريان)، وهو رئيس اساقفة المشرق الذي ينادي في كل الكنائس؛ ويخضع لسلطته الروحية جميع المسيحيين من السريان الارثوذكس في العراق وفارس واذربيجان.

وقد جعلت تكريت كرسيا للمفريان بعد ان انقسمت الكنيسة الشرقية الى شطرين: ارثوذكسية ونسطورية، وكانت الكنيسة النسطورية تخضع بامورها الدينية للجاثليق الساكن في المدائن اولا، ثم في بغداد، والكنيسة الارثوذكسية

تخضع للمفريان الجالس في تكريت، ثم رتبت احوال هذا الكرسي سنة ٦٢٨م بواسطة المفريان ماروثا الذي رتب لكنيستها اثنتي عشرة ابرشية، أو مقاطعة كنسية في بلاد العراق، وضم اليها بعد ذلك ثلاث ابرشيات اخرى في بلاد فارس والافغان، ثم ازدهرت حتى بلغ عدد الابرشيات الخاضعة لها زهاء الثلاثين.

وهذا يعطي دلالة كبيرة على عدد السريان في ذلك الوقت. ففي العراق الان ابرشية لبغداد، واخرى للموصل، وتوجد في دير مارمتى مدرسة اكليركية يديرها أحد المطارنة.

وبقيت تكريت كرسيا مفريانيا حتى اواسط القرن الثاني عشر الميلادي، وبالضبط حتى العام ١١٥٦م حيث آثر المفارنة السكنى في الموصل تارة، وفي دير مارمتى تارة أخرى، وآخر مفريان جلس في تكريت ثم تركها هو اغناطيوس لعازر الذي اهتم بتجديد بعض كنائسها نحو سنة ١١٥٢م، واراد أن يعيد اليها رونقها القديم، غير أن الدهر لم يهمله فترك تكريت، وادمج كرسيها مع كرسي الموصل بمساعدة يوحنا مطران ماردين، ثم توفي بعيدا عنها في ١٤ حزيران عام ١١٦٤م.

وبرز دور السريان في عصر ازدهار الاسلام اكثر ما برز في العراق، فبالرغم مما كان لهم من وجود ومقام لدى الخلافة الاموية، فإن عصر ازدهار العلوم كان في عهد الخلافة العباسية، ففي أثناء تلك الحقبة كان بلاط الخليفة الرشيد وابنه المأمون يغص برجالات السريان العباقرة، من فلاسفة وشعراء وتراجمة نقلوا من لغات مختلفة كالفارسية واليونانية الى اللغة العربية، وكذلك الاطباء الذين ازدهت بهم عاصمة الرشيد آنذاك، وكان عصرها الذهبي في أيامهم[١٥٠].

وفي المراحل اللاحقة من تاريخهم كانت ظروف معيشتهم مشابهة لما هي عليه في سورية، فالحاكم كان واحدا تقريبا.

ويظهر أن السريان في العراق حافظوا، على مر القرون، على مستوى علمي عال قياساً إلى اقرانهم، ونلمس ذلك في أثناء الحكم الملكي حيث كان لم اسهامهم في العمل الوطني، مما رشحهم الى دخول مجلس الامة (أي مجلس النواب)، والى مجلس

١٥٠– سهيل قاشا: تكريت، المجلة البطريركية– دمشق، العدد الحادي والسبعون، كانون الثاني، ١٩٧٠، السنة الثانية، ص٣٣.

الاعيان، والى مجلس الوزراء إذ عين روفائيل بطي وزيرا، وهو صحفي وطني مرموق كانت له صحيفته اليومية التي تصدر في بغداد. وكان يشار لهم بالبنان في ثقافتهم ونفوذهم ومركزهم الاجتماعي، مما جعل ابناء الطائفة السريانية في ذلك البلد مسموعي الكلمة، مرموقي المكانة.

وكان يختار لهذه المناصب العليا في العهد الملكي والجمهوري ابناء ينتمون الى عائلات عريقة وبالثقافة والمكانة الاجتماعية، والى اليوم (١٩٩٦م) يحتل أحد أبناء الطائفة السريانية حقيبة وزارية، وترجع أصول عائلته الى آل سرسم.

واسماء ابناء السريان في العراق هي اسماء سريانية وعربية- اسلامية- اذا جاز لنا التعبير- ولهذا من الصعب احيانا معرفة هوية هذا الشخص، أو ذاك من خلال اسمه.

كان العلم هو المنهل الذي اتجه اليه ابناء الطائفة السريانية في العراق بعد زوال العهد العثماني، وكانت توجد عائلات ثرية في مطلع هذا القرن، على عكس ما كان عليه وضع السريان في سورية (العراق تجارة ومال وعلم، وفي سورية فقر وفلاحون ثم انقلبت الى الزراعة والصناعة ودخلت ميدان العلم).

وبرز في الفئات السريانية المتعلمة الكثير من اساتذة الجامعة، نذكر منهم- في سبيل المثال لا الحصر- الدكتور متي العقراوي، الشخصية البارزة على الصعيد التربوي العربي، وهو الذي انتقل من العراق الى الجامعات الامريكية لتدريس علم التربية، وكان آخرها في الجامعة الامريكية ببيروت، كما لا ننسى عائلة بشير الموسيقية، واشهرها الموسيقار منير بشير المعروف على الصعيد العربي والغربي بعزفه والحانه المميزين.

كما نجد بين ابناء هذه الطائفة اعلى نسبة من الاطباء في العراق مقارنة مع الطوائف الاخرى، وهم أصحاب الاختصاص العالي في كل انواع الجراحة والتشخيص، وكان بينهم اطباء القصر الملكي سابقا والجمهوري لاحقا، ولهم وزنهم الاجتماعي، اضافة الى تميزهم المهني، ولا يمكن كذلك اغفال مكانتهم في عداد الهندسة والصيدلة والمهن التقنية.

ومن المؤسف للعراق أن يكون قد هاجر الكثير من ابنائه السريان الى الخارج، خاصة الى الولايات المتحدة الامريكية منذ الستينات من هذا القرن، مما افقد الكثير من المهارات العلمية التي كانت موجودة في هذا البلد.

ويمكن القول إن السريان في العراق احتلوا مكان الصدارة بين الطوائف المسيحية في كل عصور العراق القديم والحديث بما كانت لهم من ادوار فعاله ومتميزة، وبما قدموه من خدمات جليلة لصالح بلدهم.

ويعتبر الشعب العراقي ابناء الكنيسة السريانية مواطنين مخلصين يعتزون بعروبتهم، وبصدق انتمائهم، واخلاصهم لقيادتهم السياسية ايا كانت وكيف كانت، وهذا شأن ابناء الكنيسة السريانية، في كل ارجاء الوطن العربي، بل إن شعارهم هو (الدين لله والوطن للجميع).

وإذ ننهي هذه النبذة عن سريان العراق لا بد لنا من أن ننوه الى أن البطاركة الثلاثة الأخيرين المتعاقبين على السدة البطريركية السريانية هم من اصول عراقية.

الدور الوطني للسريان

رغم عظم المصائب التي وقعت على السريان من جراء ظلم وبطش العثمانيين، فقد كانوا كتفا واحدة مع اخوانهم العرب، فارض الوطن تضمهم جميعا، وهم الابناء والاباء والاخوة، وبحكم الممارسات اللامسؤولة التي افرزها الاستعمار العثماني اتجهت الاقليات في سورية الى دولة خارجية (وهي الدولة التي يعمل المبشرون من أجلها)[١٥١] لتحميها، ومن ثم لتوصلها الى الحكم، أو الى التأثير النافذ في الحكم، في الاقل. وقد ساعد هذا الوضع الطائفي أغلب المسيحيين، وبخاصة الكاثوليكيين والموارنة والبروتستانتيين، وبعض المثقفين الارثوذكس، على التخلص من المجتمع العثماني- الاسلامي، الذي كانوا يعيشون فيه بمثابة رعايا ومضطهدين واذلاء، ومن ثقافته، والاتجاه الى الثقافة الغربية، والدعوة الى المؤسسات السياسية والاجتماعية القائمة في الغرب.

١٥١- د. منير موسى: الفكر العربي في العصر الحديث، دار الحقيقة- بيروت ١٩٧٣، ص٢٠.

وكان السريان مع الاتجاهات الوطنية التي سادت المنطقة، شأنهم شأن اخوانهم في العراق، وتعاطفوا مع الحركات السرية العربية التي قامت ضد الحكم العثماني. وبعد المجازر التي تعرض لها هؤلاء ازداد نزوحهم الى المدن السورية. وفي اثناء الحكم الفيصلي ١٩١٨-١٩٢٠م حاولوا جاهدين ان يسمعوا صورتهم الى الحكومة الفتية التي قامت في سورية الطبيعية، باعتبار ان انتشار السريان الاساسي هو في هذه البلاد.

وقد لاحظ الجنرال اللنبي هذا الشعور الوطني العارم عندما زار دمشق مع زوجته في شباط ١٩١٩م- في أثناء غياب فيصل- حيث أقام له النادي العربي حفلة تكريمية ألقيت فيها الخطب الحماسية، واسترعت انتباهه كلمة مطران السريان آنذاك (افرام برصوم) عندما وجه حديثه اليه قائلا: «لا تحول مسيحيتي دون اعتناق مذهب الوحدة العربية، الذي يجمع أبناء البلاد على صعيد واحد في الاخاء والمساواة»[١٥٢].

ويبدو أن اللنبي الذي كان ينفذ سياسة بلاده بريطانيا، كان يرى في موقف الوطنيين خطراً على مصالح بلاده، كما أنه لم يأخذ بعين الاعتبار كلمة برصوم عن الوحدة العربية، بل أطلق كلمة السوريين على المواطنين من سكان سورية، وكان من رايه أن فيصلا هو الذي يحمل القضية السورية في مؤتمر الصلح، وليس التهور الذي شاهده، فقد أتى في جوابه «لاحظت أن الحماسة والقوة الوطنية، قد بلغتا منكم حدا بعيدا، ربما وصلتا بكم الى درجة التهور الذي لا يستغرب حصوله في مثل حالتكم الحاضرة، لذلك أرى واجبًا علي أن انصحكم بالاعتدال، واتخاذ التؤدة والرفق دليلا في الطريق السياسي المفتوح أمامكم، مؤكدا لكم أنكم ستحصلون على أمانيكم الوطنية المعقولة اذا طلبتموها بالحكمة والتعقل، أما اذا تطرفتم في طلبكم، فيصبح الوصول اليه امرا مشكوكا فيه، وأوصيكم في الختام بالاعتماد على مؤتمر الصلح، ونائبكم الامير فيصل عضو فيه(*)، وقال لبرصوم «انني بصفتي مسحيا، أشكر لك عواطفك، وأتمنى لبني قومك السوريين مستقبلا مجيدًا»[١٥٣].

١٥٢- يوسف الحكيم: سوريه والعهد الفيصلي، المطبعة الكاثوليكية- بيروت، ١٩٦٦، ص٥٩.

* كان البطريرك الياس الثالث قد اصطحب (المطران) افرام برصوم عام ١٩١٩ الى لاستانة، ومن هناك اوفده من قبله الى مؤتمر السلام في باريس ليبسط امام اعضائه ماعني به الشرق والعرب من مصائب وطرح محنة السريان.

١٥٣- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص٦٠.

ويعبر ما قاله (المطران آنذاك افرام برصوم) عن الاماني التي حملها ابناء الطائفة السريانية لفوز سورية ولبنان باستقلالهما بعيدا عن الإستعمار العثماني. وقد اتى الاستعمار الفرنسي على سورية ليمكث فيها ربع قرن، مع أن اكثرية الشعب في سورية من أصحاب الدعامة العربية الوطنية، وكانت شديدة في عدائها لفرنسا، لما كانت تسمع عنها من رغبتها في استعمار البلاد، ومحو اللغة العربية والاسلام، وكانت الجزائر والمغرب العربي مثالين بليغين أمامهم.

وكان المسيحيون الارثوذكس يعارضون فرنسا، ويخشون حكمها لسورية ولبنان، لأنهم (الارثوذكس) يعرفون أن فرنسا سترعى الكاثوليك أفضل منهم، وبخاصة الموارنة في سورية ولبنان، وكان لها أيضا فئة من المؤيدين بين المسلمين من طبقة الاغنياء والذوات، التي كانت تشكل أيام الاتراك الطبقة المتنفذة الحاكمة، والتي اعتادت أن ترى طبقات العامة تسير وراءها[١٥٤].

أسهم السريان في كل مراحل الكفاح الوطني، فقدموا الشهداء، وكانوا دائما يعيرون المسائل الوطنية جل اهتمامهم، فهم أبناء هذا البلد منذ القدم، وظهر وجودهم السياسي من خلال الانتخابات النيابية، وكان لهم مقعد أو أكثر في الخمسينات من هذا القرن، مقعد الجزيرة النيابي احتله سعيد اسحق والياس نجار، فالاول انتخب نائبا لرئيس المجلس النيابي في عهد اديب الشيشكلي، وحين هرب هذا من سورية، عين رئيسا للمجلس يوم ٢٦ شباط ١٩٥٤م بعد أن تولى مأمون الكزبري رئيس المجلس النيابي السابق مسؤولية رئيس الدولة. وفي ٢٨ شباط ترك هذا مسؤولية الحكم لسعيد اسحق، فأصبح هذا الرجل الاول في الدولة لمدة يوم واحد، حيث استلم الحكم في الاول من اذار ١٩٥٤ هاشم الاتاسي[١٥٥].

وفي الاربعينات نشطت في العالم الحركات القومية، وكان منها المنطقة العربية، ففي لبنان بشر انطوان سعادة بفكرة الهلال الخصيب، وتأثر بهذه الافكار افكار (القومية الاثورية)، التي تجمع كل افراد من ينتمون الى الاصل السرياني المسيحي، أو التي تجمع الصف الارامي على قاعدة الجنس واللغة، الشماس نعوم

١٥٤- د. علي سلطان: تاريخ سورية ١٩١٨-١٩٢٠، دار طلاس - دمشق ١٩٨٧، ص ٢٠٠.
١٥٥- باتريك سيل: الصراع على سورية، ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحه، دار الانوار - بيروت ١٩٦٨، ص ٣٠.

فائق المتوفي عام ١٩٣٠م حيث اصدر عام ١٩١٦م صحيفة (ما بين النهرين)، ومن ثم تولى رئاسة تحرير صحيفة (الاتحاد) الى أن هاجر الى الولايات المتحدة.

ووقع في عام ١٩٣٣م عصيان الاشوريين في العراق ايام حكم الملك غازي، وقد اختلط الامر على أحد المؤرخين فعدّ الاشوريين سريانا، وهم الذين هاجروا من العراق الى الجزيرة في سورية بعد فشل عصيانهم، كما كان لهم في عام ١٩٣٧م شبه حركة عصيان في الجزيرة[١٥٦]. وقامت عصبة الامم المتحدة بشراء أراض على ضفاف نهر الخابور، حيث اقامت لهم مخيمات خاصة، وحين راجع هؤلاء الاشوريون البطريرك افرام برصوم لطلب ضمانات لحقوق الاقليات الاشورية في الجزيرة بصورة لا تمنع الاذى عن ابناء قومه خارج الجزيرة أثر الحياد[١٥٧].

والواقع أن السريان قاوموا جميع المحاولات الإستعمارية لفصل الجزيرة عن وطنهم الام سورية.

وفي المجالس النيابية اللاحقة بقي التمثيل السرياني بحدود عضوين الى ثلاثة اعضاء عن منطقة الجزيرة، وفي الخمسينات انتخب لاول مرة نائب سرياني عن حلب، وتكرر ذلك في الثمانينات.

وكنا قد ذكرنا دور السريان السياسي في العراق من خلال ما عرضنا له في القسم الخاص بهذا البلد.

أما عن دخول وزراء سريان الى الحكم في سورية، فقد حدث ذلك في عام ١٩٨٢، والى العام ١٩٩٦ - حين تدوين هذا الكتاب - وفي وقت ما كان يوجد وزيران في آن واحد، وبعدهما اتى وزير ثالث، واستلم هؤلاء وزارات شؤون مجلس الوزراء والانشاء والتعمير والصناعة، واخيرا السياحة، وبالطبع فان دخول هولاء الوزراء الثلاثة الوزارة كان على خلفية انتمائهم الحزبي.

وفي لبنان انتخب أول نائب سرياني في دورة عام ١٩٩٢ عن الاقليات في بيروت، وتكرر ذلك لنائب آخر في دورة ١٩٩٦.

١٥٦- محمد جميل بيهم: العروبة والشعوبيات الحديثة، مطابع دار الكشاف - بيروت ١٩٧٥، ص٣٠.

١٥٧- مجلة (الجامعة السريانية) مرجع سابق، ص١٦.

أما في الاردن فكان للسريان ان تقلدوا مناصب تكنوقراطية عديدة منها نائبة حاكم البنك المركزي.

ويتضح مما ذكرناه أن دور السريان السياسي هو دور وطني دائما، ولهم اسهاماتهم الكبيرة في بناء مجتمعاتهم وبلدانهم.

خاتمة

لقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن السريان، تاريخهم وايمانهم وحاضرهم، وخير ما ننهي به هذا الكتاب تعداد الصفات والخصائل والشمائل التي يتحلون بها.

قال الخوري عيسى اسعد من مؤرخي الروم الارثوذكس: «السريان شعب نشيط، عامل، مقتصد، لذلك قلما ترى فيه متسولا. وبالرغم من الازمات التي مرت به ما برح محافظا على مركزه الاقتصادي لحبه الدأب في العمل، وبعده عن تقليد الغربيين بالاسراف والبذخ»[١٥٨].

إن السريان ومن تبقى منهم ، مازالوا على مدى آلاف السنين لهم ثقافتهم التي تعني تسوية الشيء، وهم جادون في تعميق هذه الثقافة التي تعرضت لتراكمات جمة، في فترات زمنية كثيرة، وهي التي تعني – في ذهني– النمط الموروث والمكتسب للسلوك الاجتماعي الحاذق والسوي للافراد والجماعات في استخدامها لتحركاتها وتخاطبها وحواراتها وانتاجها، شاملة المعتقدات والاخلاق والقيم.

واكثر ما نلمس هذه (الثقافة) في الاحتفالات الدينية، فهي تعبر عن الفكر والمعتقد، منتظمة في بعدين، احتفالية لها جلالها وخشوعها اللذان يتناسبان مع الموقف.

وثقافة هؤلاء السريان هي ثقافة شعب عريق، قوي الخلق والاخلاق، طيب العشرة، وبناء للمدن والمجتمعات، له جذوره وعمقه التاريخي. ومن خصائصه الذكاء والفطنة والانفتاح على الطوائف الأخرى، والافادة من ثقافاتها عبر اختلاط مقصود جاء نتيجة عمليات اجتماعية تراكمية خلال الحقب التاريخية المختلفة.

١٥٨– الخوري عيسى اسعد: الطرفة النقية– حمص ١٩٢٢، الملحق، ص٤٢٤.



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

المراجع

١- الكتب العربية

١- ابن أبي أصيبيعة: عيون الانباء في طبقات الاطباء، المطبعة الوهبية- القاهرة.

٢- ابن خلدون: مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر. دار العودة -بيروت ١٩٨٨.

٣- ابن العبري: عنصر تاريخ الدول، نشر مؤسسة منابع الثقافة الاسلامية. قم ايران.

٤- ابن النديم: الفهرست، مطبعة الاستقامة- القاهرة.

٥- أسعد ، الخوري عيسى: الطرفة النقية - حمص ١٩٢٢.

٦- الاصفهاني، أبو الفرج : الاغاني دات الكتب - القاهرة.

٧- أمين، أحمد: فجر الاسلام، مطبعة الاعتماد- القاهرة ١٩٢٨.

٨- أمين، أحمد ومحمود زكي نجيب : قصة الادب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٤٣.

٩- الاندلسي، صاعد بن أحمد: طبقات الامم، طبع محمد مطر (سوريه).

١٠- انيس، د. ابراهيم : اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.

١١- اوليري، د.لاسي: علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب. ترجمة الدكتور وهيب كامل. مكتبة الخانجي- القاهرة.

١٢- برصوم، البطريك افرام: اللؤلؤ المنثور، مطبعة ابن العبري دير مار أفرام السرياني-هولندا ١٩٨٧، الطبعة الرابعة.

١٣- ـــــــــــــ : الالفاظ السريانية في المعاجم العربية - حمص ١٩٥٧.

١٤- ـــــــــــــ :مزارع الجزيرة المطبعة الحديثة- حمص ١٩٥٥.

١٥- بلنت، الليدي آن: قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨. ترجمة أسعد الفارس ونضال خضر معيوف، دار الملاح للطباعة والنشر - دمشق ١٩٩١.

١٦- بن طلال، الحسن: المسيحية في العالم العربي. المعهد الملكي للدراسات الدينية - عمان ١٩٩٥.

١٧- بيهم، محمد جميل: العروبة والشعوبيات الحديثة. مطابع دار الكشاف- بيروت ١٩٧٥.

١٨- توينبي، ارنولد: مختصر دراسة للتاريخ. ٤أجزاء ترجمة فؤاد محمد شبل دار النهضة المصرية ١٩٨٢.

١٩- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء الكتاب. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٣٨.

٢٠- جودي، ب: محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب، القاهرة ١٩٥٤.

٢١- حتي، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد، ود. عبدالكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨.

٢٢- ـــــــــــــ : تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال يازجي- دار الثقافة- بيروت ١٩٥٨، الجزء الثاني.

٢٣- ـــــــــــــ : تاريخ العرب، ترجمة الدكتور جرجي جبرائيل جبور، دار غندور - بيروت الطبعة الخامسة ١٩٧٤.

٢٤- ـــــــــــــ : اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان - بيروت المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦١.

٢٥- حسن، د. حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسي، مطبعة مصر ١٩٣٥، الطبعة الثالثة.

٢٦- حسين، حسن: الكنز في قواعد اللغة العبرية، القاهرة ١٩٥٦.

٢٧- الحكيم، يوسف : سوريه والعهد الفيصلي. المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٦.

٢٨- الحلبي، برهان الدين : السيرة الحلبية، طبع ١٢٩٢هـ.

٢٩- الخازن، الشيخ نسيب وهيبه: من الساميين الى العرب. دار مكتبة الحياة- بيروت ١٩٦٤.

٣٠- خوري، منح: التاريخ الحضاري عند توينبي. دار العلم للملايين ١٩٩٠.

٣١- خير، د. صفوح: مدينة دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي- دمشق ١٩٨٢.

٣٢- داود، المطران يوسف: اللمعة الشهية ي نحو اللغة السريانية. طبع في دير الآباء الدومنكيين - الموصل ١٨٩٨.

٣٣- دنو، نعمة الله: التراتيل الروحية ، بغداد ١٩٦٢، الطبعة الثانية.

٣٤- دي بور، ت.ج. : تاريخ الفلسفة في الاسلام . ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده. لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.

٣٥- رستم، د. اسد : تاريخ كنيسة مدينة الله العظمى انطاكية - بيروت ١٩٥٨.

٣٦- زريق، قسطنطين: نحن والتاريخ، دار العلم للمايين- بيروت ١٩٦٣، الطبعة الثانية.

٣٧- زكار، د. سهيل : من ملامح الحياة الاجتماعية في دمشق. كتاب : دمشق اقدم مدينة في التاريخ. دمشق - سوريا- ١٩٩١.

٣٨- زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال - القاهرة ١٩١١.

٣٩- ساكا، الاب و(المطران) اسحق: السريان- ايمان وحضارة ج٢ و٤ . دراسات سريانية - حلب ١٩٨٣.

٤٠- سلطان، د. علي: تاريخ سورية ١٩١٨-١٩٢٠. دار طلاس - دمشق ١٩٨٧.

٤١- سميل، ر.سي: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ترجمة محمد وليد الجلاد- دا طلاس- دمشق.

٤٢- السيد زغلول، الشحات: السريان والحضارة الاسلامية. الهيئة المصرية العامة للكتاب- الاسكندرية، ١٩٧٥.

٤٣- سيل، باتريك: الصراع على سورية، ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحه، دار الانوار- بيروت ١٩٦٨.

٤٤- شابري، لورانت، آني شابري: سياسة واقليات في الشرق الادنى - الاسباب المؤدية للانفجار، ترجمة د. ذوقان قرقوط، مكتبة مدبولي- القاهرة ١٩٩١.

٤٥- شاحت، وبوزورث: تراث الاسلام. ترجمة د. محمد زهير السنهوري. سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٨.

٤٦- شبل، فؤاد: منهاج توينبي التاريخي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة ١٩٦٨.

٤٧- شير، أدي: تاريخ كلدور وآثور. طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩١٢-١٩١٣.

٤٨- صايغ، د. يوسف: التنمية العصية، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩٢.

٤٩- العدوى، د. ابراهيم: الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، مكتبة الانجلو المصرية- القاهرة ١٩٥٨. الطبعة الثانية.

٥٠- العظمة، عبدالعزيز: مرآة الشام، دمشق وأهلها. منشورات رياض الريس للكتب والنشر- لندن د.ت.

٥١- عيواص، البطريرك زكا الاول: كنيسة انطاكية السريانية عبر العصور، دراسات سريانية - حلب ١٩٨١.

٥٢- ـــــــــــــ : نظرات خاطفة في تاريخ كنيسة انطاكية المشترك مع الاسلام عبر العصور -دشو١٩٩٥.

٥٣- غرنباوم، غوستاف فون: دراسات في الادب العربي، ترجمة عدد من المترجمين ، منشورات دار الحياة-بيروت ١٩٥٩.

٥٤- غزال، موسى يونان: حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي. مطبعة مارافرام- العطشانه- لبنان ١٩٧٣.

٥٥- فريحة، انيس: معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية. دار النهار - بيروت - ١٩٧٢.

٥٦- قاموس منّا السرياني- العربي.

٥٧- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي : صبح الاعشى، وزارة الارشاد القومي- القاهرة.

٥٨- كامل، د. مراد: تاريخ الأدب السرياني. مطبعة المقتطف - القاهرة.

٥٩- كريمر، صموئيل: من الواح سومر، ترجمة طه باقر ، مراجعة أحمد فخري مكتبة المثنى - بغداد ١٩٥٧.

٦٠- الكلداني، القس يعقوب: دليل الراغبين في لغة الآراميين. طبع في الموصل في دير الآباء الدومينيكيين ١٩٠٠.

٦١- مجموعة من المؤلفين : السريان: نشأتهم- انتشارهم- تراثهم. مركز الدراسات والابحاث الرعوية. انطلياس - لبنان ١٩٩٥.

٦٢- المحافظة، علي: الاتجاهات الفكرية عندالعرب في عصر النهضة. الاهلية للنشر والتوزيع- بيروت، ١٩٧٥.

٦٣- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب، المطبعة البهية المصرية- القاهرة ١٣٤٦هـ.

٦٤- ــــــــــ: التنبيه والاشراف، طبع الصاوي بالقاهرة، ١٩٣٨.

٦٥- المغربي، محمد علي: الكلف الشمسي. سلسلة اقرأ رقم ١٩٨، دار المعارف بمصر ١٩٥٩.

٦٦- المنجد، صلاح الدين: الحركات التقدمية في العراق حتى غزو التتار. الطبعة الثانية، دار العلم للملايين- بيروت.

٦٧- موسى، د. منير: الفكر العربي في العصر الحديث. دار الحقيقة- بيروت، ١٩٧٣.

٦٨- ميخائيل، د. نجيب: مصر والشرق الادنى القديم، دار المعارف بمصر ١٩٥٩.

٦٩- نانتاجو، ماكس: المعجزة العربية، ترجمة رمضان لاوند، دار الكشاف- بيروت ١٩٥٤.

٧٠- يعقوب الثالث، البطريرك اغناطيوس: البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية- دمشق.

٧١- ــــــــــ: تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية- بيروت، ١٩٥٣.

٧٢- ــــــــــ: المجاهد الرسولي، مار يعقوب البرادعي- دمشق ١٩٧٨.

٧٣- ــــــــــ: الكنيسة السريانية الهندية. العطشانة -لبنان ١٩٧٤.

٣- الصحف:

٧٤- أحمد عثمان: الانباط العرب، يستخدمون الآرامية لكتابة لغتهم. صحيفة الحياة- لندن ٣٠-٦-٩٥.

٧٥- صحيفة السفير- بيروت ٣١-٨-١٩٩٣.

٧٦- مجلة المستقبل العربي- بيروت. العدد ٢٠٩ /٧/١٩٩٦.

٤- الدوريات :

٧٧- مجلة الجامعة السريانية بوينس آيرس- الارجنتين: القرى السريانية في مدن سورية، الجزء الاول ١٩٤٠.

٧٨- مجلة المسرة- حريصا، لبنان. الاشمندريت يوسف نصر الله: حركة النقل عند الملكيين في العصر العباسي الاول. العدد ٥١١ كانون الثاني، ١٩٦٦.

٧٩- مجلة المسرة- حريصا، لبنان. حنا الفاخوري وخليل الحر: قيمة الترجمات العربية واثرها في الفكر العربي. العدد ٤٣٣ اذار. ١٩٥٨.

٨٠- مجلة المسرة- حريصا، لبنان د. ابراهيم مدكور: حنين بن اسحق المترجم. العدد ٥٩٦ ،حزيران ١٩٧٤.

٨١- مجلة الجندي – دمشق. سمير عبده : هل اللغة المالطية عربية في أساسها. العدد ٤٣٢ ، ٣٠-١-١٩٥٨.

٨٢- مجلة العربي- الكويت. مايو ١٩٩٦.

٨٣- مجلة العربي- الكويت. الاب اسحق ساكا: معنى التسميات للشعوب السامية الثلاث الكبرى: العرب، الآراميين، العبرانيين. العدد ٩١ ، حزيران ١٩٩٦.

٨٤- مجلة العربي- الكويت د. ابراهيم السامرائي: العربية، العبرية، السريانية. العدد ٢٤٩ ، أب ١٩٧٩.

٨٥- مجلة العربي- الكويت محمد علي الزركان: حنين بن اسحق شيخ المترجمين العرب، ٢٩٢، اذار ١٩٨٣.

٨٦- مجلة الجدار – بيروت. من مقابلة مع مطران جورج. خضر العد الاول- السنة الأولى ١٩٩٤.

٨٧- مجلة الشرق المسيحي- بيروت. العددان الاول والرابع لعام ١٩٠٨.

٨٨- مجلة الحكمة – القدس سنة ١٩٢٩.

٨٩- مجلة لسان الشرق- الموصل. العدد السابع ٢٢٣ ، سنة ١٩٤٣.

٩٠- مجلة الضاد- حلب. الخوري برصوم ايوب. العددان ١١و١٢، سنة ١٩٩٥.

٩١- مجلة الحوادث - لندن. من مقابلة مع الاب ايلي كسواني، ١٨-٩-١٩٨١.

٩٢- المجلة البطريركية- دمشق. تصدر عن بطريركية سائر المشرق للسريان الارثوذكس. العدد ٦٨، عام ١٩٦٩.

٩٣- المجلة البطريركية- دمشق. سهيل قاشا. تكريت. العدد ٧١، السنة الثامنة، كانون الثاني ١٩٧٠،

٩٤- المجلة البطريركية- دمشق. كتاب البطريرك افرام برصوم، وقد نشر قسم منه في العدد ١٣، السنة ٢٠، ١٩٨٠.

٩٥- المجلة البطريركية- دمشق. العدد ٨٦ السنة ٢٧ حزيران ١٩٨٩.

٩٦- المجلة البطريركية- دمشق. البطريرك زكا الاول عيواص: كنيسة انطاكية ودعوى المنشقين عنها في ملبار.

٩٧- المجلة البطريركية- دمشق. المطران غريغوريوس يوحنا ابراهيم: المراكز الثقافية في بلاد ما بين النهرين. العددان ١٥١- ١٥٢- كانون الثاني وشباط، السنة ٣٤، ١٩٩٦.

٩٨- المجلة البطريركية- دمشق. الاب يوسف سعيد: مجلد ١٦.

٩٩- مجلة الاسبوع العربي- بيروت العدد ١٩٢٠، ٢٩-٧-١٩٩٦.

١٠٠- المجموعة الاحصائية السورية ١٩٤٩، مديرية الاحصاء، وزارة الاقتصاد الوطني- دمشق السنة الثانية.

١٠١- المجموعة الاحصائية السورية ١٩٥٦، مديرية الاحصاء، وزارة الاقتصاد الوطني- دمشق السنة التاسعة.

١٠٢- مجلة المشرق- بيروت، الخوري أرملة، اسحق: القرى السريانية في مدن سورية. الجزء الأول ١٩٤٠.

٥- المحاضرات :

١٠٣- ادوار حشوة: اثر المسيحيين الشرقيين على الحضارة العربية، محاضرة القيت في جمعية الشبان السريانية، دمشق يوم ٢٠-٩-١٩٩٦، ضمن الموسم الثقافي للجمعية ١٩٩٦- ١٩٩٧، وصدرت بكراس.

٦- الكتب الاجنبية:

104- George Sarton : Science and Modern civilization Library Books, New York 1956.

105- Encyclopedia Britannica. London 1980.

